جائزة الاستحقاق الأدبي- لبنان 2007

عائشة بنّور

اعترافات امرأة

رواية

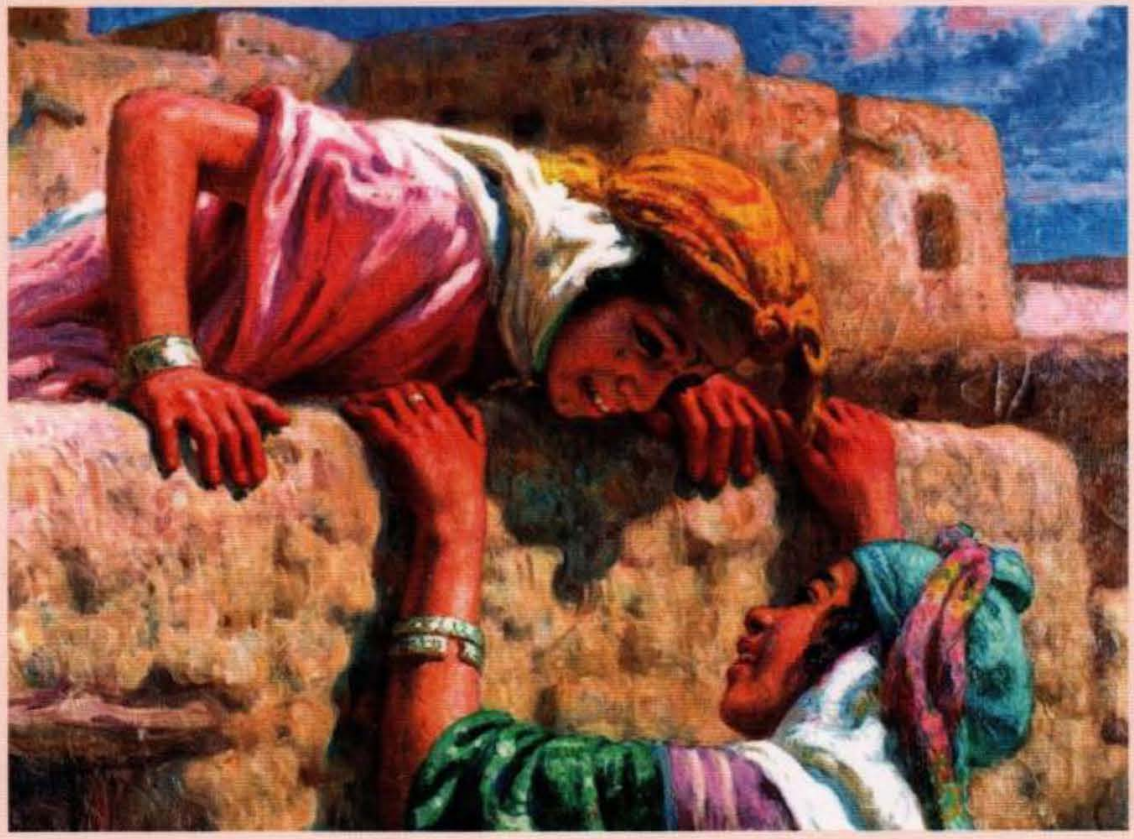

الطبعة الثانية

منشورات الحضارة

دار الحضارة
للنشر والتوزيع والطباعة
Editions El Hadara

اعترافات امرأة

- رواية -

© منشورات الحضـارة

ص ب 04 (A) بئر التوتة -الجزائر 16045

هاتف/فاكس. 46. 70. 41 (021)

البريد الإلكتروني. kheddoucir@yahoo.com

الإيداع القانوني. 2642- 2015 ردمك. 978-9931-357-31-5

لوحة الغلاف للرسام نصرالدين إيتيان ديني

عائشة بنّور

(بنت المعمورة)

اعترافات امرأة...

روايـة

فائزة بجائزة "الاستحقاق الأدبي" ناجي نعمان الأدبية 2007 بلبنان.

الطبعة الثانية

منشورات الحضارة

الإهداء...

إلى العزيزتين سناء ونور ....
إلى كل امرأة تأبى أن تكون غير امرأة..
إلى كل رجل يرى في المرأة إنسانا..

عائشة

تقديم

تشظي الذات ولعبة الضمائر في رواية عائشة بنور (بنت المعمورة) "اعترافات امرأة..".

قال الشاعر أبو البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سرّه زمن ساءته أزمان

وينتضى كلّ سيف للفناء ولو

كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذووا التيجان من يمن

وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شدّاد في إرم

وأين عاد وشداد و قحطان

بهذه الأبيات الرائعة الموحية استهلّت عائشة بنت المعمورة روايتها الجميلة"اعترافات امرأة" والتي كانت بمثابة نبراس أوكنار

مضيء يتكئ عليه المتلقي وهو يخوض مغامرة قراءة هذا النص المبهر وكلما احتار المتلقي في تفسير كلمة أو حدث أو جملة أو مشهد عبر صفحات الرواية جمعاء يعود إلى هذه الأبيات التي أرى أنها كفيلة بأن تحل أي مشكل أو لغز إن وجد هذا أو ذاك وهما نادرا ما يصادفانا في هذا النص المميز- وبذلك استطاعت عائشة بذكاء فطرى وإبداعي وحس روائي شفيف أن تسرع لنجدة المتلقي من تيهه إن تاه في مسيرة قراءته للنص لكي تأخذ بيده حتى يهتدي إلى ما تريد أن تقوله أو تتركه في أحيان كثيرة لكي يعمل عقله في استنتاج مدلولات من وراء أسطرها تزيد النص طزاجة وطلاوة ولا تبتعد كثيرا عما تبغي أن تقوله وما تريده أن يصل إلى المتلقي ساعدها في ذلك كثيراً قدرتها الفائقة على استخدام ضمائر القص بشكل يعكس رؤيتها الفاحصة للذات الإنسانية في جميع تجلياتها وخاصة في مراحل الضعف الإنساني المرئي والخفي فهي بحنكة رائعة تعرف متى تستخدم ضمير الغائب عندما ترصد أحداثاً خارجية وواقعية وتقع في محيط الذات المادي والاجتماعي ولكن عندما تتحدث عن ما يعتمل داخل الذات من فوران وغليان نتيجة أخطاء بشرية مزرية تصل إلى حد الخطيئة فهي تلجأ إلى ضمير المتكلم للولوج أكثر داخل الذات، هذا الداخل المعتم والغامض

والذي لا يصلح مع رصده في الكتابة سوى ضمير المتكلم الذي يساعد البطل - الراوي على سبر أغوار ذاته والعمل على استبطان هذه الذات للكف عن هويتها ومحنتها في نفس الوقت وهذه اللعبة التي أتقنتها عائشة إلى حد الإجادة في روايتها واتكأت عليها ببراعة تحسد عليها حقا في رصد انفعالات أبطال روايتها ومحاولة الوصول إلى أنقى صورة للذات استخدمتها عائشة بما يضيف لنص جماليات ما كانت توجد في مثل هذا النص لولا هذه البراعة في الرصد وهذه القدرة على توظيف الضمائر في المواقف المختلفة كما أضيف أيضا براعة أخرى تجلت في هذا النص الروائي الجميل وهو قدرة عائشة على التحليل السيكولوجي والذي قد يرى آخر أنه من مميزات كتابة الرواية الحديثة أو المعاصرة إلا أن أهم ما يميز عائشة ويجعلها تختلف عن باقي الروائيين التي تعاصرهم أو يعاصروها هو الوصول إلى أعمق نقطة من الذات والتعامل معها بشكل أفقي مستعرض وليس كما هو شائع في الروايات الجديدة التعامل معها بشكل رأسي عمودي من منطلق ما يطلق عليه الإسقاط الفني على الواقع.

فهنيئاً لنا نحن أولاً قراء إبداعات عائشة بنت المعمورة على هذه الاكتشافات المدهشة في رصد سبر أغوار الذات الإنسانية أو على

هذه القدرة الجميلة على اكتشاف مناطق وأدوات روائية أتصور أنها تخص عائشة فقط دون غيرها من الروائيين الآخرين سواء- وإن كنت ضد هذا التصنيف المجحف- سواء كانوا هؤلاء الروائيين ذكوراً أو إناثاً فنحن بصدد تجربة روائية تستحق حقاً التأمل والرصد الدقيق من المشتغلين الأكاديميين بالنقد الأدبي والروائي منه على وجه التحديد لتحقيق أكبر استفادة ممكنة من هذه التجربة الثرية حقاً.

وأخيراً هنيئاً لعائشة نفسها هذا النص الروائي المدهش الذي يضيف لتجربتها المزيد، والمزيد المزيد ...

بقلم الأديب والروائي المصري
موسى نجيب موسى
- جامعة الفيوم -

لـكل شـيء إذا ما تـم نـقصـان

فلا يغرّ بطيـب العيـش إنـســان

هي الأمور كـما شاهـدتـها دول

مـن سـرّه زمـن سـاءتـه أزمـــان

وينتضى كلّ سـيـف للفناء ولــو

كان ابن ذي يزن والغمد غـمـدان

أين الملوك ذووا التيجـان مـن يـمن

وأيـن منهـم أكـاليـل وتـيـجـــان

وأيـن مـا شـــاده شـــدّاد في إرم

وأيـن عـاد وشـداد و قـحـطـــان

أبو البقاء الرندي

وجع طفولي

رمضان...

شهر رمضان وحده يحدد نقطة تمركزي ويجبرني على الانصياع.. يجعلني في ترقب الساعة لحظة المغيب.. وحده يحرّرني من قيود شهواتي ونزواتي وملذّاتي.. وحده يحدد نوعية ألواني الضبابية التي اكتشفت صفاءها في الصحراء وبين الرمال الذهبية..

رمضان وحده يخرج ذاك الطفل المشاكس.. المستهتر الذي يسكنني..

طفل يلعب.. يتمرد على الخصوصية والقوانين ويعبث بالكؤوس الملونة بالشفاه...

طفل أناني يتمتع بالأشياء إن ملكها ويبكي إن ضيّعها!

طفل يتمرد على الانصياع والصمت والقهر..

طفل يحاول أن ينسجم مع العالم الخارجي الذي وجد فيه نفسه وحيدا غارقا في أحلامه ومشاعره.. منطويا على حالات وجدانية عنيفة من الحب اتجاه شخصيات مرت في تكوين شخصيته الطفولية كالجدتين خيرة وزينب..

طفل بشخصية انطوائية حسية غير ثابتة تتغير بتغير الظروف المختلفة، تتجاذبه الأفكار ساعة أن رأى جسد جدته خيرة ممدّدا لا يحرّك ساكنا.. لقد ماتت.

طفل صغير يحاول أن يستوعب لغة الموت، لغة استطاعت أن تأخذ منه تلك العجوز التي كان يلعب فوق ظهرها المحدودب ويتمتع بجولته معها بين الحقول وبين قطيع الغنم والماعز وبين ألوان الدجاج للبحث عن بيض مخبأ تحت القش وبين وبين و.. و..

ووحده رمضان الذي كان يشعرني بالزمن و بالانقياد عن طواعية.. طواعية لا أدرك سرها!

كنت أنتعل التناقض بالطول والعرض.. نسخة مزورة لحقيقتي التي كانت تعاني انفصاما حادا..

انفصام يطاردني مرة ويصافحني مرة أخرى...

رائحة انتماء تتحرك بداخلي تأخذني إلى حيث الشوارع المزدحمة بالأهالي وهم يجوبون المحلات ويبتاعون حاجاتهم.

كنت أشم رائحة الأكل الطيب ورائحة البخور تعبق المكان ورائحة الحب ورائحة التقوى.. ورائحة الطيبة ورائحة ورائحة.. و.. و..

رائحة تعيد إليّ الثقة بنفسي المهزوزة وتنهي حالة التناقض التي كانت وهما من أوهام الكؤوس الملونة...

بداياتي..

بداياتي كانت شرعية مقنعة.. مجموعة من الأشكال لاتجوز مناقشتها، ولا يجوز الاعتراض على أي لون من ألوانها المختارة.

ربطات العنق...

ربطات العنق الملونة أوهمتني بكبرياء مصطنع احترفت التظاهر به أمام أصدقائي في المكتب وحتى أمام رجاء التي أسقطتني ابتسامتها في قاع الجب كورقة خريف ذابلة منكسرة وهي ترحل وإلى الأبد.

بداياتي...

بداياتي كؤوس ملونة.. كؤوس تشبه كؤوس الخمرة لصاحبها الذي كنت أردّد شعره في سري كلما ضاق صدري وحمّلني صديقي "توفيق" اللوم والعتاب:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ** وداوني بالتي كانت هي الداء

لا شيء أكثر إيلاماً من تلك الأفكار التي تأتي وتهرب ثم تتلاشى وقد تتدافع بأفكار أخرى فيلفها النسيان وسرعان ما تعود لحظة السكون..

لقد قرأ كل الألوان وصنع من نفسه مرآة لشخصه.. وما كانت المرايا إلاّ بداية للاعتراف..اعتراف الألم والوجع..

تعود بلا لون وقد تعود بكل الألوان الفاقعة والباهتة..

الـرؤيـا

رأيتهـا في منـامي بلبـاس أبيـض.. عـروس تحمـل في يـدها مجموعة من الألوان والأقلام.. مزجت الألوان أمام ناظـري وهـي تقول:

- تعال نلعب لعبة الألوان.. هكذا نمزج الألوان..

الأحمر مع الأصفر.. برتقالي والأزرق مع الأصفر.. أخضر والأحمر مع الأزرق.. كحلي، الأحمر مع الأبيض.. وردي والأزرق مع الأبيض.. سماوي والأسود مع الأبيض.. رصاصي..

ثم رفعت الريشة ومسحت بها على أنفي وهي تضحك قائلة:

- أليس جميلا مزج الألوان ببعضها البعض.. إنها متعة ولذة.. هكذا الحب بكل الألوان وهكذا الحياة تعطينا لونا غير الذي نحب؟

- إنها لذة الألوان..

وقد ضاعف من يأسه وكآبته صفير رياح هوجاء في الخارج تلعب بالنوافذ.. فحرك أزيزها توترا بداخله قائلا:

- سأنفجر.. سأنفجر..

بل سينفجر غضب السماء في الخارج وجو الغرفة المشحون بالرطوبة يخنقني...

أطلّ من النافذة فبدّت له لعبة الألوان فارغة وأزقة الشارع فارغة.والمدينة تسبح في اللون البني.. تغرق في الأوحال وكل ما تجرفه معها من نفايات وأشجار وأسلاك كهربائية وقطط وفئران تسبح مع التيار.. ورجل شبه عاري متعلق بحبل مشدود إلى جذع شجرة مكسورة، وسيدة تستند إلى سور الجسر بعدما هربت من منزلها على حافة البحر.

الكل كان يسبح.. لاشيء كان ضد التيار.. حتى الأجساد لم تقو على السباحة ضد التيار.. الطوفان وحده كان السيد.

ومضت سبعة أيام.. خفت وطأة الزوابع في شدّتها بعدما عصفت بأحلامي فانتحبت سيدة بالجوار على سقوط ابنها من أعالي البناية المتصدعة، ناحت بصوتها الشجي حتى بلغ خوفي وذعري من عباب الطوفان القادم نحو المدينة!

تطلّعت إلى الجو وإلى سقف الغرفة الضيقة فوجدت السكون يخيم على المكان، وقد أضاءت المصابيح وشعت أنوارها الأماكن البعيدة الحالكة بالظلمة.. وازداد عجبي لهذا الصمت وأدركت أنها الطبيعة فعلت فعلتها الليلة...

إنها ليلة الألوان!

انهمرت الدموع على وجهي لا تدع آثار الوجل.. بقيت جاثما أمام النافذة ورأيت الناس يهرعون ويصرخون ويبكون، يفترشون الأرض خشية أن تتهاوى البنايات فوقهم بعدما تزحزحت من مكانها..

يهرع الملوك نحو الأديم وقد نزعوا تيجانهم بعد أن عاثوا في الأرض فسادا...

أجل رأيتهم بالأمس عظماء.. يلبسون التيجان ويعلقون النجوم.. ويلبسون الفاخر ويأكلون الشهد.

ورأيتهم يسرقون الدمع من العيون والفرح من القلوب واللقمة من الأفواه الجائعة..

ورأيت زبانيتهم تتسلخ من أثوابها ومن سيّاطها ومن جبروتها وسخطها.. و.و..

واليوم تلحق بهم اللعنة.. لعنة السماء..

سجدت حمدا لله وجلست أبكي.. أبكي لأنني لم أكن ملكا تنزع الطبيعة تاجه مرغما!!

لقد رأى صديقي في منامه رؤيا!

لقد رأى صديقي "رامي فتحي" فيما رأى رؤيا تنذر بالشر.

فقال لي:

- اللعنة ؟

قلت:

- ماذا تعني ؟

قال:

- لقد حلت اللعنة.. فلن نموت ميتة السلام ؟

وفاض الحزن بصديقي رامي فتحي واستجابت نفسه لرغبة الاعتراف فقال بعدما لعبت المدامة برأسه:

- خرجت من السهرة ثملا.. بعدما لاعبت وراقصت.. وشممت العطور وضربت الأنوار بعقلي فزدت الكأس كأسين حتى أفرغت الزجاجة الخضراء..أجل.. لقد كان لونها أخضر..

وبنبرة مستفزة هادئة قلت:

- وهل ميّزت الألوان بعد إفراغ الزجاجة؟

فقال بقسوة محملا ذاته:

- لقد خسرت الدار.. الدار.. خسرت ألوان كل الدار..

قالها بنبرة اشتياق وأهمل مواصلة التعليق مستسلما للذة الاعتراف.

تجهم وجهه وراح يعيد أمامه الظروف القاسية التي اضطرته لذلك.

قلت له وأنا أتفرس ملامح وجهه بقوة وكأنني أراها لأول مرة:

- ما فات قد فات.. ولا مبرر لفعلتك.. وربّت على كتفه مخففًا من شدة ألمه.

رمقني بنظرة خاطفة على ضوء مصباح قريب منه وكأنه شعر بإحساسي اتجاهه وهو يقول:

- أنتَ.. أنتَ لا ترغب في حديثي عن الخطيئة..

قلت:

- كلنا خطاؤون وخير.. !!

قاطعني بعنف.. ثم رد بانكسار مرير:

- وهل رحمتني المتاعب لأبتعد عنها!

تغيّرت سحنة صديقي "رامي فتحي"وقال بلهجة الخوف:

- والرؤيا؟

قلت له بعدما أفزعني خوفه:

- دعني أقول لك إن الموت هي السعادة الأبدية، وما الرؤيا

التي رأيتها إلاّ روح من أرواح الجنة زارتك وأنت تلبس لباس الخطيئة!

رمقه بنظرة استجداء وقال لنفسه وهو يستلقي على الفراش بعد أن خرج "توفيق" من عنده وقد هام على وجهه وجال ببصره المكان من حوله ثم انهمك في اللعب مع روحه المفزوعة.. ونسي كل شيء حتى الخطيئة؟

وفي حيوية فاترة عايش اللّذة واستمتع على غير عادته بتلك الرؤيا التي زارته في خطيئته..

وتخيل الكواكب والنجوم وغزو الفضاء برغبة طفل يسعده التوهج واللمس..

وفي جو بارد يعاني الوحشة والملل والجزع.. تلوح على وجهه مسحة الكآبة فأبدى أسفه على تأمله وتنهد قائلا:

- ثمة أمل!

دلّت تقلصات وجهه على منتهى السعادة ومنتهى القرف من نفسه، وأن التعلق بالحياة حماقة و تهاوى في فتور عميق وأشياء كثيرة ذابت في مخيلته وأعاد الماضي يعتذر منه..

حرك في أعماقه المغلقة خبايا صمت طويل.وما اعترافه إلاّ أنه شخص منقسم الشخصية قد زاد من قلقه، ووجد في اعترافه ما يخفف من مشاعره المتوترة.

ولبث في الظلام محتجا على ضياع العمر بعدما تذكر الجرح الذي حفرَّته في قلبه.. ولكنه رحل.. رحل وتركها.

ازداد تنفيصا وما لبث أن أغرَقه ذلك في عملية الجذب والشد وفي ازدواج شخصيته قائلا:

- عدم التكيف مع الواقع والضغط النفسي الرهيب يجعلني أرفض الحياة..أرفضها باستهزائي..أرفضها بحماقاتي.. وأنقاد إليها بزجاجاتي وكؤوسي وتهوري..

أسقط في فراغاتها التي توقعني كل مرة في انزلاقات خطيرة أنا في غنى عنها.. تجرني نحو اللارجوع فتحملني ما لا طاقة لي به.بل أحمل نفسي ما لا أطيق !

كنت أفتقد أحيانا إلى القدرة على التميز، فتدهور سلوكي الشخصي واضطراباتي في التفكير وربما حتى اعتقاداتي الخاطئة لبعض الأمور.. جعلتني أعاني.. أعاني الكثير..

ثم نزل من فراشه باتجاه النافذة وهو يردّد في سره:

- هل كنت أعاني من برودة المشاعر اتجاهها؟

- وهل كان لتقلب مزاجي دور في ذلك؟

في البداية حاولت الانسحاب من المكتب للحزب ثم من أسرتي، فانعزلت عن أمي وأبي يوما بعد يوم إلى أن هجرت القرية بحجة الحياة الكريمة في المدينة ثم من المجتمع، وحتى عدم قدرتي على العمل والاتصال مع الآخر.

تنتابني نوبات عنف تثير في نفسي القلق لدرجة أقلق من أنها تؤثر على حياتي الطبيعية..

انتابتني هذه الحالة عدة مرات في الآونة الأخيرة وسيطرت على كل تفكيري وسلوكي..

فالقلق سبب لي الكثير من العصبية وعدم الإحساس بالراحة، فرعشة اليدين وبرودة الأطراف أدت بي إلى حالات من الكآبة وحالات من الابتهاج وحالات لا أجد لها تفسيراً.

كنت أحاول التخلص من الضغوط والاكتئاب بحمام الزيوت العطرية، إذ أضع قطرات من زيت الصنوبر في الماء

والبقاء فيه لفترة، ثم أتخيل نفسي داخل بحيرة تقع في أعالي الجبال.. مكان هادئ ومناظر خلابة.. أسمع صوت العصافير وهي ترقص والنسيم يداعب أشجار الصفصاف من حولي..

وروائح عطرية ترسلها الطبيعة وشابات من حولي يضعن زهورا صفراء على شعورهن ويحرقن البخور أمام ناظري ككهنة بعل يحرقون البخور لبعل والشمس والقمر..

أو كما كان يفعل الرومان فلكل آلهة بخور خاص بها، إله الشمس الزعفران و إله الحرب الصبار... إذ كنت أرى في أريج الأزهار طبائع الروح التي لا تقبل إلاّ بما هو محسوس والبحث عن التوازن أكثر بداخلي.

كان يهمني أن أجد رفيقا في وحدتي وأن أجد لأسئلتي الإجابة وبكل لون ورائحة...

أن تقنعني تلك الألوان التي علّمتني إياها بأنني رجل يمكنه أن ينجب الأطفال، ورائحة أبوة أتلذذ نشوة بإحساسها..

وأمضى وقتا يثرثر مع نفسه.. محتجا أحيانا ومتفهما أحيانا أخرى.. متألما.. بائسا.. سعيدا.. مؤكدا في نفسه على

أن مؤسسة الزواج أصبحت فارغة من الحب.. من المودة والرحمة..

أصبحت مجرد أجساد تلتقي لحظة المغيب.. مجرد مؤسسة مطالب وسباق مع الزمن.. مجرد.. مجرد..

- ماذا لو كنت امرأة؟
- امرأة لا تنجب الأطفال؟
- هل أرضى بقسمتي معها؟
- هل أتزوج بأخرى لتنجب لي البنين والبنات..
- أن تملأ أصواتهم صمت هذه الغرفة الضيقة..
- هل أطلقها؟
- هل أرحم اشتياقها للأمومة؟
- هل.. هل..

أتعبتني أسئلتي التي فرضت نفسها على تفكيري بإلحاح وقلت وأنا من يتحملني الآن!

- هل ترضى أن تبقى مع رجل عاجز عن الإنجاب، وترحم أبوتي وتحرم نفسها الأمومة؟

- ماذا لو قبلت طلبها بتبني طفل يملأ وحشتنا..

- هل أصارحه بحقيقته وحقيقتي حينما يكبر و ينادي بابا.. بابا..

- هل أضيّع حلم الأبوة عنده وأخبره أنني لن ولن أصبح أباً؟

كانت "رجاء "من أسرة عريقة وغنية.. أسرة سي مخلوف ولد عبد القادر ذات سمعة طيبة وكريمة.. توارثت الشرف والجود والهيبة أبا عن جد.حتى لون البشرة لعبت الجينات الوراثية على استمراره عبر أجيالهم .

سي مخلوف ولد عبد القادر رجل تجاوز الستين من العمر يتميز بطبع رقيق، سريع الغضب ورجل يعرف الكثير عن الثقافة الشعبية لأهالي المنطقة.. ينفث سرعة غضبه في قول المثل الذي يتخذه سيفا حادا يوقف الشخص عند حده، لكنه طيب القلب، نقي الروح، شجاع..

كانت رجاء ابنته.. ابنة أحد أكبر الشركات في النفط والغاز بالجنوب الجزائري.

شابة جميلة المظهر والقوام.ذات شعر أسود مسترسل..

وعينين سوداوين.. تعلو وجهها حمرة الحياء البدوي.. بشوشة الروح.. ذكية.. تعتز بنفسها.. كلها ثقة وإرادة .

كنت أقضي معظم أوقات العطلة الصيفية مع العمال عبر الصحاري الشاسعة في التنقيب عن البترول والتي تدخل في إطار عملي، بعدما تركت القرية النائمة نوم أهل الكهف باتجاه المدينة وصخبها حينما تعرفت عليها.

متعة الاكتشاف جعلتني أبحث عن وردة الصحراء وعن تلك الحيّات التي تنساب بين الرمال الحارة دون أن نشعر بها.. عن أثار تسكن الأحجار وعن سلسلة الطاسيلي بالقرب من الأهقار، نعانق رمالها الذهبية الدافئة، ولفح شمسها الحارقة وهي تصب نيرانها الملتهبة خلال النهار، وتحت الخيم التي ننصبها نستلذ بطعم اللحم المشوي على الجمر وخبز "الملّة" المطهي تحت الرمل الساخن، نختم الجلسة الحميمية رفقة الأحباب بكؤوس الشاي المركز، المطبوخ على الجمر المتوهج لفترة من الزمن حتى يأخذ لونه البني الفامق..

كانت صورة الصحراء تزداد جمالا وسحرا آخر، جمال يصنعه الطوارق برقصاتهم وأغانيهم التقليدية بالعزف

على التقدي والأمزاد.. وفرحة أخرى يصنعها سباق الجمال ورقصة العرس للرجال الملثمين بلباس المنطقة تشكلها مبارزة فلكلورية بالسيف.

كانت الصحراء قطعة جمالية ومغامرة الاكتشاف ذكرّتني بصورة الرحالة المغامرة "ايزابيلا ايبرهارد" المولعة بالترحال بين كثبانها وواحاتها..

امرأة بحثت عن الطمأنينة بين ظلالها وأهلها فهدأت نفسها حتى ماتت غريقة كثبانها المائية.

كل لوحة من الألوان صوت وصورة.. كان لضوء الشمس لون وللظلال لون وللكثبان لون آخر وسحر لطالما فتن "ألبير كامو" أو"أندريه جيد" لواحات بسكرة أو"يوجين فرومنتان" القائل: "إنه مفمور بالألوان"حتى أنه سكن قصرا بناحية مصطفى باشا.

كانت الأساطير والأعراس والعادات والألغاز جزء لا يتجزأ من ذرات رمالها الذهبية ووجه من وجوه شخصيات ناصر الدين (إيتيان ديني) التي كانت تزين لوحاته.

وتلك السلاسل الصخرية التي تبدو جداريات لنقوش حيوانات عاشت في المنطقة.. طيور وزواحف وحشرات كانت لحيوانات نادرة.. نقوش صخرية توحي بالصراع الإنساني منذ الأزل والتي تشهد تعاقب الحضارات على المنطقة.

لكن اليوم لاشيء بقي.. كل شيء ضاع وضاعت معه المتعة وحب الاكتشاف وما بقي إلاّ تلك السلاسل الصخرية والنقوش تشهد على مروري.

- هي الحقيقة التي اكتشفتُها.. فرحلت!

كنت أتسلى بالفتيات في شوارع المدينة ولم أنعم بالاستقرار إلاّ عندما تصدقني واحدة منهن.فيزداد الأمر عندي دعابة أو مجرد انفعال عابر.

أمتهن جمالهن كما تمتهن الحرية والإنسانية اليوم ؟

حياة آخر الليل فيها لذة خاصة وحياة النهار لذة من نوع العتاب والندم.. كلها ممزوجة بالكذب والخيانة والهزيمة!

- ما أسهل التحدث عن الخطيئة؟

- ما أصعب الاعتراف؟

كان لأفلام الرعب وقع خاص في نفسي رغم سلبية شخصيتي.. فكان الخوف بالنسبة لي خوفا مستحبا ثم خوف رد الفعل إلى أن أصبح خوفا مرضيا..

كنت أجد في نفسي رعباً داخلياً.. خوف من المجهول، وما نوبات الذعر تلك إلاّ لخوفي الشديد من المواجهة ومن الماضي والمستقبل..

كانت كتلك الزوابع التي استسلم لها حتى الملوك !

والحقيقة أنه لا قيمة للإنسان اليوم!

أقنعة ممزقة

قالت في نفسها :

- الفارق بسيط بين اللونين....

اختارت اللون المحبب إلى نفسها.. خليط صُدْفَوي من الألوان والأشكال.. لبست الفستان الفضفاض بربطة على الخصر.. ازدادت شهوتها للجمال وضحكت ضحكة دوى صداها الغرفة..

- إنه معجب بشخصيتي وبأناقتي و بتفكيري وبأحلامي.

- إنه معجب.

وأشرق وجهها بفرحة ساذجة وتلألأت الألوان في مخيلتها من مصابيح المرقص، ومضت تراقصه وهو يشد على خاصرتها بذراعيه يستردان معا لحظات معبقة بسحر الليل وهدوئه..

قالت وأساريرها ترقص طربا:

- إنها نشوة عجيبة لازمتني، وانبعثت في نفسي أشواق غامضة نحوه..

- أتراه الحب؟

- أتراه وداع للحب؟

- أم أنه عرض من أعراض اللحظة الضائعة تجاري مكامني!!

- أم أنه تحدي الخوف من مجتمع يرفض الحب ويحاربه بالقتل أو النفي أو الانتحار..

منذ نعومة أظافري وأنا أمتهن العشق الطفولي بداخلي..

امتهن الحب كلعبة أخفيها أحيانا وأحيانا أخرى أجمِّلها بأحلى الملابس التي أخيطها لها..

كنت أحس الحب في قلبي و لكل الأشياء، ويتحول إلى كومة رماد إذا ما لمحته الأبصار؟

فعوالمي لم تكن براري مكشوفة.. لقد استُئصلت أوردة الرفض والمعارضة منذ أن ظهرت متعة الرغبة في التصادم والتمرد على تلك الطقوس التي سحقت كبريائي وسحقتني كأنثى..؟

أنثى تعشق الأنوثة حد النخاع!

كان ثمة تناقض كبير بين الحب والخوف والتمرد فظلت أوتاد البداوة محفورة في أعماقي تستحي الاقتراب من مملكة الحب وتختلس الحب اختلاسا من الصور والأغاني والشجر والطير ولون السماء وحتى من المطر؟

كنت أرى الحب يسرق من ثقوب الأبواب والنوافذ نهارا ويمرر في الرسائل خفية ويدخل البيوت خلسة في الليل لأنه كان مقهورا و محظورا..

وقتها شعرت أنه ينفصل عن جاذبيته ويتخطى كل الخطوط المرسومة له.. ويتمرد على تلك القيود التي طوقته.

كان لونا غير اللون الذي أحببته في طفولتي وفي أشيائي ولعبي..

كان حبًا مقنّعا يتجاوزني أنا الطفلة المدللة التي تبحث باستمرار عن وجهها وصوتها بين الوجوه المقنعة، وعن الشكل وما وراء الشكل وعن اللون وما وراء اللون، ومن ثمة شاركني الشكل واللون حجرتي وسريري وأناملي وأحلامي وملابسي وتسريحة شعري ولوحاتي، فكنت أمارس على نفسي رقابة اللون والشكل والوجع الذي أصبح لغة أخرى تسيطر على كل تصرفاتي...

البوح...

كان الحب يمارس البوح على أجساد تتصارع تحت أقنعة الشهوة والكبت وارتكاب حماقة الوهم وتصديقه..

كان الحب المقنع وحش يفترس ضحاياه ليلا ويصلبها

نهـارا ، وأكـبر جريمـة يرتكبهـا عـدم الاعـتراف بـضحيته وبولادة طفل غير شرعي تحت جنح الظلام.

اغتصـاب..

حـب يغتصب البراءة في عمر الزهور بعدما تلجأ إليه لفك قيودهـا ، فتقع رهينـة الأغلال التي تكبلها وإلى الأبد.. بـراءة.. ضحية.. خطيئة..

وأصـبح الانهـزام والاحـتراق وجهـا آخـر للخيانـة يحطـم أكثر المرافئ الآمنة.....

مخـاوف...

رمـشت عيناهـا المستديرتان وتجهـم وجههـا حزنـاً ورغبـة ملحـة تسائل رغباتها الدفينـة.. ثـم ابتسمت ابتسامة غامـضة وتذكـرت أنها مجرد مخاوف لا جدوى منها.

وراحـت تتقلـب علـى الـسرير فانحـسر طـرف فـستانها الـوردي عـن نـصفها.. سـوّته ثـم استـدارت علـى جنبهـا بجنـون الرغبة في رؤياه.

تأملت نفسها في المرآة ثم استدارت يمينا و يسارا ومسحت عن وجهها بعض الألوان الهارية من مكانها بعدما نسيَت أن تخفي تلك الخيوط الرفيعة تحت الجفون..

ابتسمت راضية عن نفسها ثم خرجت...

همسات ملونة

وقفت إلى جانبه جامدة القسمات حيّته بابتسامة الفرح وهي تحاول أن تعتذر عن التأخر متلعثمة تبحث عن الكلمات، لكنها هربت منها بعدما رأته.

وبالجوار وعلى بعد أمتار امرأة متقدمة في العمر تجلس على كرسي خشبي وإلى جانبها رجل أبيض الشعر.. يتناقشان في مشكلة ما، لأن صوتهما كان يصل إلى مسمعيهما بقوة تلفت النظر نحوهما.

لاحظ تلعثمها فقاطعها واضعا الوردة الحمراء على شفتيها.. فصمتت عن الكلام.

جلسا بالقرب من شجرة النخيل الباسقة على مقعد قريب.. نظر إليها.. وخطفت النظرة من عينيه في استحياء ودفنت وجهها بين راحتي يديها.

نبض قلبه بشوق غريب ولهفة لاحتضانها، أن يلصق خده بخدها وأصابعه تتخلل شعرها الذهبي الطويل، أن يمتص رحيق الأحلام منها.. أن.. أن..

أن يأخذها على حصان أبيض كما يفعل الأمراء ويجري بها في المروج و الوهاد حتى يتهاوى المغيب لحظة السكون.

أن يبتسم شذاها الطيب فلا يستفيق منه إلاّ على همساتها.

أحسّت بغفلته وشروده، فأبعدت يده عن وجهها دون أن يشعر بذلك قائلة:

- أين أخذك الحب مني هذه المرة؟

ردّ بعيون ممتلئة بالدموع:

- حبا في الحب!

لأنني كنت أريد أن أنسى الماضي والأيام الأليمة، أن يصبح الماضي كأوراق الخريف وأنسى معه الإجابة العالقة التي كانت تختفي و تستفزني بأنني رجل ناقص؟

كنت أريد أن أرتكب الحماقات وأن أطير فوق السحاب وأن أثور كالبحر فينتفض من على الشاطئ الجبناء وضعاف النفس مثلي، أو أبتلعهم في جوفي وأرمي بزبدي على الرمل الذهبي ليسوي المكان كما تعوّدت موجاتي الغاضبة أن تصل إلى أبعد نهاية..لتصل إلى آخر الأقدام وهي تهرب منها أو ترتمي فيها، أن أحطم الصور المألوفة في مخيلتي.. أن يمتصني قرص الشمس نحو المجهول.. ويدفعني بقوة نحو ألوان الطيف!

كنت كطفل مشاكس يسأل كثيرا و يتعب منْ حوله بالإلحاح:

- أين تذهب الشمس؟
- أين ينتهي البحر؟
- ومن أين تأتي ألوان الطيف؟

طالما نصحني معلمي بالمثابرة والبحث.. سرّني ذلك فالتفوق غير متوقع من طفل مثلي!

بل متوقع.. فالعلماء أقوياء بالحجة وبالحقائق وما المال إلاّ مفسدة للوقت .؟ هكذا كنت أقول لنفسي.

توهمت يوما أنني سأستمر في البحث فلقد أرهقني الصمت بعدما كنت أمتلك الحقائق.. حقائق الألوهية والحضارات القديمة..

حقيقة مغيب الشمس ونهاية البحر وتكوين الطيف والمطر وثوران البركان والحب والضوء واللون..

وتعلمت منها لغة الألوان، فكان شعرها بلون وفستانها بلون وحقيبة يدها بلون وحذاؤها بلون وعيونها بلون وابتسامتها بلون وشفتاها بلون وصمتها وحياؤها بلون و.. و..

كانوا يعبدون النار لتوهجها والقمر والشمس.. أما أنا فأحرقني التوهج يوم عرفت ألوانها ومزجتها بأناملي...

كانوا يعبدون الآلهة فجعلوا لكل مظهر إله ببناء المعابد ونحت التماثيل.. إله السماء والبحر والحرب والقمر و.. و.. وفكرة خلود الروح إلى الأبد.. المرتبطة بالحضارات القديمة.

حقيقة زيوس ملك السماء والرعد والبرق ومردوخ وبعل.. و.. و..

كنت مولعا بحقيقة ماسينيسا ويوغرطة وحنيبعل، بناظم الإلياذة والأوديسة هوميروس وبرابعة العدوية وبنفرتيتي وكيلوباترة ونابليون بونابرت وهتلر ومولعا بطبق السمك كالقرطاجيين الذين تفننوا في رسمه..

كنت أريد أن أكون هرقل أو هيركولس إله الزراعة والتجارة.. أن أكون في عينيها بطلا.. بطلا أسطوريا..

أن أخنق الأسد وأقتل الأفعى ذات الرؤوس التسعة.. أن أقبض على الخنزير البري حيا..

أن أقتل بالسهام طيور بحيرة ستيمفالا التي كانت تتغذى بلحوم البشر وأكون هرقل البطل..

أن أروّض أمامها ثور كريت الهائج برداء أحمر كما يفعل الأسبان.. يسرقون الحب باللون الأحمر ويقتلون باللون الأحمر ويتلذذون باللون الأحمر وينتصرون بالأحمر؟

أن أقطف التفاحات الذهبية من حديقة جزر هيسبريد المسحورة..

وأن تكون هي عشتروت آلهة الحب والجمال.. عشتروت

التي أعادت الحياة إلى أدونيس إله الجمال والخصب بعد أن قتله خنزير بري..

أن تكون امرأة وأكون رجلا في عينيها يسحرها.. رجلا وكفى!

كانت أشعة الشمس ترسل آخر خيوطها المشعة وهي تستحم بماء البحر.. تطاردني عيناها من قلق أتعبني وحنق تصورته في غيابها!

- هل أصارحها بمخاوفي السخيفة ومحاصرة أوهامي..

- ربما تظن أنني عابث بحياتها أو ربما ، و ربما..

فيرد عليه خاطره قائلاً:

- لكنها تعشقك ولا تخفي استعدادها للبقاء معك؟

- أوهام سخيفة!

قاطعتْ صمته برقة وهي تخفي غيظها وقلقها منه:

- الجو حار..

لم أسمع ما قالت وتظاهرت بذلك.. كنت أقاتل نزعاتي وأحارب زيوس وهرقل ويوغرطة وماسينيسا ووساويسي

فسحبت من جيبي سيجارة وأشعلتها..

رمقتني بنظرة تعب وملل قائلة:

- لم أعهدك تدخن.. منذ متى؟

- منذ أن عرفتك؟

- وهل معرفتك بي تسيء لشخصك.تهلك صحتك.. أنت تعلم أنه مضر للصحة..

- إنها خيانة لراحتي؟

- خيانة!

أشعل سيجارة أخرى وهو يقول:

- وإن ابتعدت عنها خيانة.

ثم يلتفت إليها وهو يقول:

- الفنان يرسم بالألوان وأنا أرسم أشكالا في الفضاء من أنفاسي، وأنت فنانة تعرف كيف ترسم الأشكال؟

- أنتَ تحترق بلهيب الخطر؟

تجهم في وجهها:

- أسئلة كثيرة بلا جواب..

ابتسمت ابتسامة عصبية وأدركت أنه عليها أن تنهي هذا الحوار الذي لا تفهمه، وأن تغادر المكان بسرعة.. استأذنت منه بلطف ثم رحلت.. رحلت..

رحلت والحقيقة أنها خطيئتي.. خطيئتي أنه كان لي وجه آخر غير وجهي، وروح غير روحي تزورني تلك الرؤيا المحملة بنذير الشؤم .

أي جنون ذاك حينما نتحدث عن الحزن و الفرح وماذا قدمنا لأرواحنا التي نعبث بها دون تردد ولا خوف.. نلغي كل الحدود المرسومة.. نلغي ذوّاتنا.. نلغي حدود القدر فتجرفنا تيارات غزيرة محملة بذنوب الآخرين..

يسعدني أن أزور مريضا ويسعدني أن أمسح دمعة يتيم، وأن أدق على باب جاري وألعب مع الصغار وأسقي الأشجار و.. و..

- لكني لم أفعل !

وتساءلت بعدها أنني جزء من جنة أكاذيبي...

اعترافات اللّذة والنار

أعترف أنني امرأة حذفت النقاط من الحروف وقرأت الكلمات بالمقلوب ورسمت الأفكار بالألوان..

أعترف أنني مزقت ستارة صمتي ورحلت عبر رموشك الكثيفة لأسرق السكون من دمعاتك..

فلا جرم إن أبديت اعترافي والتخلص من حب أوقعني في الاعتراف..

حينما تمتزج ألواني وتصدح مواويل أنفاسي وأرسم أجمل لوحاتي تحكي جغرافية لهيبي.. أعترف..

أعترف أنني مزقت فساتيني المخبأة في الخزانة بعدما رفضت كل الألوان ورميت بشظايا المرايا المكسورة حتى لا تدينني الخطيئة..

بقايا براءة وطفولة نسيتها في صوري العتيقة، تداعب طيوفها أضلعا مهشمة وبقايا أنفاس محترقة..

مازلت امرأة تفرش البراري الواسعة بألوان الطيف المكبوتة وترنو رويدا رويدا إلى لسعات حرائقك على صدري.. فتستحيل اللحظات المختصرة وتهرب من تمردي حقيقتي المرفوضة..

أعترف..

أعترف بانهزامي وبانسحابي المطرز بلآليء ألواني..

وأعترف بحيائي الذي كبّلني لأذوب في بقايا أحلامك..

لست أدري إن كنت أعدمت نفسي قبل أن أرحل على وسائدك، وأرمي بجسدي على صهوة جواد يرفض القيود!

أعترف أنني امرأة مازالت.. تحبك..!

لقد كنت أبحث فيك عن نفسي الضائعة في أنفاسك.. كنت أريد أن أقول لك أنني امرأة ترفض الحواجز والتناقضات والرغبات المكبوتة..

امرأة تلملم شتات عمرها الضائع على شفتيك.. ارتبكتُ حينما رأيتك تقترب مني.. من ألواني التي مزجتها ولوحاتي التي رسمتها في غربتي..

كأنني أودعك سرا وتهجرني علنا.تركتني بجسد محموم أهذي بحقيقة أحاسيسي التي هزمّتني أمام وسامتك، فأكتشف أنني على وشك أن أضع قبلة على خدك البارد لتتحول إلى فوضى بداخلي وجنون يهزمني ولحظة حزن تدهشني حينما أعترف.

آه..

لقد قاومت المرأة الأخرى.. الساكنة بداخلي.. هي وحدها التي اكتشفَت أنني لست امرأة وهي الآن تنازع اكتشافي!

اكتشفت أنني جسد لامرأتين تتحديان الاعتراف كل على طريقتها.. اعتراف الشهوة واعتراف الكبت واعتراف الحرمان واعتراف الأنوثة؟

كنت أعي أن في اعترافي هزيمة لا أقوى على تحملها.. امتلكَت شيئا مني وملأتني بالشهوة والجنون.. تسلّلت إلى سريري وهي ترفض المكابرة..

امرأة أخرى تحايلت بها على نفسي.. تحايلت عليها بعطري وبألواني وبصمتي وبكائي...

تحايَلت عليها بهزيمتي الطويلة منذ أن حُفرت الأوتاد في أعماقي..

امرأة أخرى لا تريد أن تكون نسخة مني.. من فشلي وهروبي..

امرأة متجددة.. تتجدد بداخلي.. تعلن رفضها وطواعيتها.. ترفض جوعي وعطشي وعرائي..

امرأة تتأملني وكلها تحدي، وامرأة أتأملها وكلي حياء ودهشة.

أعترف أنني أمقت تلك المرأة التي تسكنني مجبرة.. تختار الجسد واللون بشهوة المومياء المحنطة..

شهوة الأجساد العارية.. شهوة اللون الفاقع المبهر الذي يظهرها امرأة مني..

امرأة اللون الأصفر والأحمر.. امرأة بيهرها البريق واللمعان والإثارة.. كل ما هو أصفر وأحمر.. شعر أصفر وليال حمراء..

إنها امرأة لا تشبهني.. امرأة لا تشبه شعري الكحلي أو عيوني السوداء أو سمرتي.. أو..

امرأة أخرى تحرّضني أحيانا على الخطيئة لتكشف المجهول وتدرك سر اللّذة والنار معًا.

امرأة تخجل من عباءتي وفساتين أعراسي المذهبة، وتخجل من انتماءاتي وخصوصياتي..

وأخجل منها كامرأة ترفضني.. أخجل من حماقتها واستهتارها..

امرأة مزاجية تبحث عن الأنوثة وفك رموزها.. مندفعة..

تلبس أقنعة متعددة وتجعل من التحدي سلطة القرار ورغبة قوية وعميقة في تفكيك وتحطيم رموزها أو تقديسهم حد الذوبان.

امرأة تشتهي ثقافة الاستعراض وبيع جسدها مجانا باسم التحول والعصرنة والفن والأنثوية!!

لوحات لجسد متعدد..

أوجسد للوحات متعددة وألوان مختلفة.. جسد يصنع اللغة الفنائية بلوحات متشابهة ومتعددة، وأحيانا تمارس لوحة الجسد لوحة الغواية..

كأنها امرأة تقول لي:

- أحتج بجسدي العاري عن قمع مسكوت عنه؟

أو جسد يكسر الوصايا ويحطم أوتاد البادية!

أو جسد شهواني.. غريزي يثير الأحاسيس ويحرض على الإثارة وعلى التعامل فقط مع الجسد؟

جسد البوح ونداء الأنثى المحرومة، واعتراف بالهزيمة

والإحباط والحرمان كامرأة، وتمويض الأمزجة المريضة بإنتاج الخطيئة في كل مكان.

امرأة أمقتها بداخلي..

امرأة تعزز ثقافة الجسد وتصنع منه نصاً جديداً ومتجددا كل يوم في الفضاء، وبلوحات مختلفة شبيهة بعمى الألوان.

امرأة هستيرية تصنع من جسدها رسالة ممزقة على أضرحة توابيت قديمة!

امرأة تتأملني وكلها تحدي وامرأة أتأملها وكلي حياء ودهشة.

أعترف أنها امرأة ليست مني..امرأة أخرجت من ضلع ملتوي!

كانت بالنسبة لي لعنة داخلية تلاحقني تسرق مني بركة الأولياء الصالحين التي تعوَّدت مباركتهم عند زيارة أضرحتهم.. مرة بحبات البيض.. ومرة بدجاجة سوداء أوحمراء والدوران بها حول الضريح لإبعاد الشر ومرة للتأمل

والجنون والإبداع والهيام على طريقة الروح المسافرة..

كنت مثلهن.. امرأة أخرى تخرج مني.. تبارك البركات.

كان يكفيني وقتها حب وجنون وبركة وصمت وبكاء.. لحظة تسقط عني تلك المرأة الدخيلة التي تسكنني رغما عني!

امرأة لا تعجبها ملابسي ولا فسيفساء لوحاتي أوكهوف ذاكرتي التي تمدَّدت الانسلاخ منها ولبست تضاريس جغرافيا أخرى.. ملامحها غير ملامحي ولونها غير لوني الأسمر..

امرأة يذهلني ذنبها المستمر في التطرف ولعبتها بالحياة.. تتلاعب بالمتعة والدهشة والإغراء والشعور ويعمى الألوان وبالرغبة في الاحتواء..

وامرأة أخرى بداخلي تعترف قائلة:

- أعترف أنني امرأة الأربعة جدران..

امرأة أمامها عجوز سليطة اللسان وخلفها زوج مغلوب على أمره أدمن الترحال بين القضبان الحديدية، وبين أذرعي

أفواه أرانب تمزق أثدائي..

أعترف أن الأربعة جدران كبّلتني واخترت الصبر قيودا لأحلام جميلة أجّلتها إلى ميعاد أترقبه قريبا..

أعترف أنني امرأة تشتاق الملابس الجميلة والألوان الزاهية.. و.. و..

وأعترف أنني امرأة أتعبها الصبر وأرهقها الانتظار؟

وامرأة أخرى لا أعرفها وقد تشبهني كامرأة تعترف بقول الحقيقة أمام المرآة ولسان حالها يقول:

- رأيتُكَ تتأملني كما كنت أتأمل نفسي أمام المرآة.. المرآة هي التي تعرِّيني دون حواجز، كما كان الخريف يعري الطبيعة من زينتها ويقهرها بلونه الشاحب..

ألوِّن المكعبات والمربعات والخانات والمثلثات والدوائر.. والشتاء وحده يغسل كل ألواني..

المرآة وحدها لم تخيِّب ظني فيما حاولت أن أخفف خيباتي كلما اقتربت من لوحاتي، وأخجل من آثار قبلاتك.. أخجل من عناوين أفكارك؟

أرفض تلك القبلات..

أرفض تلك العيون التي تحاصرني..

أرفض وأرفض دون أن تشدني إلى أحضانك..

قلت لك يوما :

- أحيانا لا يبقى لدينا ما نقوله..

- تأمَلْتَني ثم انصرفتَ..

كنت هادئة وكان لا يجيد الكلام المعسول.. لكنه يحبني..

ولا يرتدي الملابس الأنيقة.. لكنه يحبني..لم يكن حبي ثرِياً.. لكنه يحبني بلا شيء .

لم أكن أعرف من حياتي معه إلا مقاطع من أغنية انجليزية لا أعرفها.. مقاطع تحرقني في صمت..

كانت تقول أغنية الرقص:

فتشوا في قلوبكم..

أنتم تحترقون..

يمكنكم أن تطيروا..

ليتحرر الجميع..

لنتحرر..

لنخلع حذاء المناسبات..

انسوا أحزانكم..

ليتحرر الجميع..

لنخلع حذاء المناسبات..

كنت أريد أن أكون شكسبير الذي سبقني بألواني.. أن أحطم تلك النظريات الحديثة التي تقول أن الفن العظيم هو الذي تمتزج فيه الواقعية والرومانسية..

كنت مولعة بالرسم وكان الواقع مادتي في البناء، وتصوري أن أجعل منه صفة انشغال خيالي.. مصادر تيه جمالي لا يعيدني إلى الواقع وإلى تلك النظريات.. فضاءات أخرى وأحلام أجّلتها مرارا وتكرارا..

أن أكون مخلصة لذاتي وللّذة وللطبيعة.. فأطلقت العنان لعدستي.. للقبض على مخيلة "دي ستايل" استعملت خدعة

الصورة حتى يظن من حولي أنها رسم..

آه من الخيال ومن الخداع..

وآه من مخيلة لوسط جميل بين التوقع والوقوع.. حيرة الطبيعة.. الطبيعة البريئة..

مسكونة أنا بهاجس المغايرة وبنزعة القلق ولذة المراوغة، ومسكونة بقول أدونيس..الشاعر الآخر "كلنا نتائج لأناس سبقونا" وقتها قلت:

- ما أسهل التقليد و ما أصعب الابتكار..

تراكم الألوان أو تعريتها هي إيقاع آخر يشكلني.يمزج أنفاسي حينما تحترق كل أوتاري.. كي أثير الضحك أو الاستغراب فكانت لعبتي الألوان.. أن أرسمها لأحررها من أسمالها الزائدة..

الرمز والإشارة لعبة أخرى قد تفقد فاعليتها إذا لم تكن قابلة للإيصال "أن تكون في حلة جديدة " كما يقول بيكاسو..

بيكاسو الفنان الذي رسم اللوحة بأكثر من شكل وزاوية.. فنان التكعيبية ورجل تبنى لوحات الجسد أو مدرسة الجسد والجمال فكانت لوحاته تخبئ وجها من وجوههن وتعلن سقوطهن أمام شيطانه.. أمام ريشته.. عاريات للوحاته ومفرمات حد الجنون وبعيدات كظله وفاتحات لشهيته في الرسم وحتى محطات سريعة..

لوحات مرة للغرام ومرة للاستسلام ومرة للتربع ومرة للانصهار...

سقطت مادلين ووقع اللوحة باسمها المرأة والعذاب ثم الجميلة والشابة صاحبة الشعر المبتل فرناند أولفية أو ايفا ووقعها باسم الجمال، وراقصة الباليه أولجا كوكلوفا ووقعها باسم صاحبة الوشاح ثم متسلقة الجبال ماري تيريز ولتر، وتيودورا ماركوفيتش، فرانسواز.. و.. و..

وفي النهاية لوحة صنعَتْها امرأة ليكون لها توقيع اسمه بيكاسو، وشيطان متعدد الأوجه اسمه اللون بجاذبيته ليسقط كل الأجساد رغما عنها، وترغمني نساؤه

عن التساؤل بين شكلهن ولونه الذي اغتصبه من روحهن.

كان الشكل يثير الدهشة والتساؤل.. شكل خاص يكسر منظومة القيّم الجمالية فكنت أرى في القبح جمالا آخر ومرآة تعكسها ألواني.. أشياء تعكس ذاتي وتعكس واقعا آخر..

في البداية لم أكن أعرف ما تعنيه لوحاتي ولا تلك الألوان المتفردة.. غير أنني حينما مزجتها أحسست بعذوبة الجمال وروح أخرى تدغدغ شعوري..

قرأت يوما ما في مجلة عن طرفة أثارت هواجسي أن صحفية سألت صاحب الريشة اليسرى بيكاسو قائلة:

- ما معنى ما ترسم ؟

- أنا لا أفهم لوحاتك؟

قال لها:

- اذهبي واجلسي تحت تلك الشجرة.

فعندما عادت سألها:

- ماذا سَمِعتي؟

قالت:

- زقزقة عصافير وهديل طيور.

فقال لها:

- هي جميلة؟ وما معناها؟

قالت:

- لا أعرف ماذا تعني، ولكن أشعر أنها جميلة.

فقال لها بيكاسو:

- لا تبحثي عن قصة، بل أشعري.

ومن وقتها صدقت أن الناس يصدقون الرؤيا، أكثر من تصديقهم الكلام.. فكنت أبحث عن ذاك الشعور في تلك الألوان وعن طفولة مقهورة مخبأة بين ضلوعي..

عن عيون أمي وأبي وإخوتي وجدتي وأبناء الجيرة والأهل والأحباب.. عن صديقاتي وأساتذتي.. والحيطان العالية وأشجار التوت.. الأحمر والأسود.. عن تراب بيتي وأنا أتمرغ فيه.. أمسح وجهي وأذره فوق شعري المجعد بضفائر مربوطة خلف رأسي.. أبحث في الألوان عن رائحة الصابون وهي تتخر أنفي وتدمع أعيني..

أبحث في مزج الألوان عن صراخي وبكائي.. عن صوتي المبحوح الهارب مع شلالات الماء فوق جسدي.. وصوت أمي يدندن فوق رأسي..

أمي التي كانت تغسل أجسامنا وأجسام أبناء عمي بالماء والصابون.. تغسل رؤوسهم الملونة "بالجدري".. كانت أمي لا تعرف غير الماء والصابون وسراويل الجينز والأفرشة وإعداد الطعام للولائم الكبرى..

أمي لا تتعب..

كانت أمي لا تعرف راحة لجسدها.. كانت تموت في الشهر ألف مرة و لا تعرف الطبيب؟

كنت لا أريد أن أكون شبيهة أمي.. أمي التي لا ترفض الأشياء المُسلَم بها..

أمي مشغولة بسجادتها وبالصوم وبزيارة المقبرة في المواسم والمرضى من الأقارب وبالغسيل والطبخ وتثور ثائرتها إذا ما تطاول عليها أبي بالضرب ساعة ما يتعدى لسانها كل

الخطوط الحمراء، أو تنتفض حينما تتكرر صورتها في أيامها المتتالية.. تجمع ملابسها وترحل إلى بيت أهلها وتتركنا نلعب لعبة الخيار.. صغار في حيرة الحب والاختيار ؟

كانت أمي.. هي أمي وأنا ابنتها..

ابنتها.. آه.. ابنتها..

كنت طفلة صغيرة وأنا ألعب في حجر أمي أعبث بخصلات شعرها الطويل مرة، ومرة أمشُطه وإذا ما نظرت إليّ تركت المشط ونزلت من حجرها دون بكاء أو صراخ كما تعوَّدت مني وأنا صغيرة إذا ما نزعت ثديها من فمي.

ثديها ذو الحلمة البنية تركني ألعب بأصابع يدي.. أضع الإبهام في فمي وبذلك فصلَتني أمي عنها وعن الحلمة البنية وعن الحياة واللعب في حجرها..

ولكي تنسيني مص ثديها تجلسني في حجرها.. تأخذ يدي وتعد أصابعي ثم تدغدغني بقوة حتى أغرق في الضحك.. الضحك وحده ينسيني ثدي أمي؟

ثم تدغدغني وأضحك.. وأضحك.. وهكذا حتى أنام!

مرة كنت أنام قبل أن تكمل عد أصابع يدي وأنسى أن أمص ثديها، ومرة حينما تبقى عيوني مفتوحة كالبدر ويزداد إلحاحي على الرضاعة تواصل اللعبة وهي تقول:

- الحلوة.. الصغيرة تبكي.. وتدغدغني.. وأضحك.. أضحك.. ثم أنام..

ككل ليلة تتكرر اللعبة وأنام في حجرها..

لقد سئمت أسراري وأنا أخفيها، وأخجل من لعبة الأصابع وهي تهاجم دهشتي وتتملص مني مرات لتعتذر عن سقوطي في لعبة الضحية وتُغيّب وعي الكامل.

كنت متأكدة أنني أقطع علاقتي مع عواطفي التي أتعبتني وأتعبت أمي بها، واليوم بالذات فشلت وأحسست أن خيالي يمضي بي خطوة خطوة باتجاه الوسادة.. أضع رأسي المثقل عليها وأنام.. أنام..

أنام وليس في حجر أمي ودون أن تدغدغني؟

انفصال مؤلم.. صدمة تثير في قلق شديد.. كأنني كنت في الجنة حينما كنت في حجر أمي وأمص ثديها، والانفصال كأنني طردت من الجنة التي كانت تحتويني.. الانفصال يعني الحرمان وكبت مشاعري.. الفطام يعني القلق.. يعني ثورات متتالية ونار متواصلة تتأجج بداخلي يوما بعد يوم..

قلق من المدرسة الذي يدخلني في دوامة أخرى بعيدة عن حجر أمي..

والزواج انفصال آخر يتعدى على نفسيتي ويحرمني من حجر أمي.. إذن القلق يثير فيّ الخوف.. خوف من الحياة والموت في آن واحد..

لقد أدركت أن الطمأنينة تراقبني كخطواتي المتعبة خطوة خطوة.. تتأملني بشيء من الحذر وكأنني كنت في جنازة مع نفسي!

يهزني الانفعال ويمزقني الترقب في تحديد نقاط استسلامي.. سقوطي الذي قتل خجلي وصنع من لذتي

أشكالا وألوانا ورموزا تقرأ بالخاطر وتخدر النائم ليواجه نوري بدفء أصابعي التي صنعت لغة التخدير في النوم وغيّبت وعي الكامل.

شجن خفي يشل رغبتي في البكاء ولأول مرة أجد نفسي خائفة من إرادتي التي أراها تغلق بابها بداخلي.داخل عتمة ضبابية أعجز عن البقاء بداخلها وكأنني في يوم الحساب!

كانت أصابعي مشدودة لأن ما كان يجري في الشارع من فوضى وهتافات بإسقاط الظلم.. حرق للسيارات وقطع للطرق تركني أغمض عيني وأسرح بخيالي إلى روح العدل.. إلى مجتمع تكاملي.. وفي نفس الوقت يشعرني بالعجز.

أن أسرح بخيالي بعيدا عن مافيا الفساد ومافيا المال ومافيا المخدرات ومافيا الثقافة ومافيا المتاجرة بالعقول ومافيا الجمال والمتاجرة بالجسد وعن مافيا الحب الذي أصبح يمرر كلمات قصيرة عبر خطوط الهاتف.. كسلعة تجارية وعلى ماركات مختلفة وبلغات ملونة.. يصطاد ضحاياه بكل الألوان وبكل لغات العالم.

كنت موقنة أن في حجرتي الضيقة وجه جميل ينتظرني وصمت أخافه..

صمت أخافه أن ينهي لغة الحوار بداخلي وتعود الأشباح من جديد تطاردني، تحدث بداخلي الحرج والارتباك أنني سقطت مرة أخرى في سقوطي، وأن الطمأنينة مازالت تترقبني كخطواتي خطوة خطوة..

خطوات بين المد والجزر.تسحقني أفكار وتتشلني أخرى، وما تلك الغصة التي تعتريني إلا غصة الألم تعتصر إحساسي الملون، أخبئ جدلا عنيفا بداخلي وسخطًا وتذمراً ولعنة لحياة البؤس والفقر والشقاء..

كانت ذكرياتي عن بلدتي تحضرني في كل وقت، بأشواق هائجة تعكر صفو مزاجي أحيانا وتشعرني بالدفء والحنين أحيانا أخرى..

كنت أبحث عن خطوطي الملونة بالطباشير على الحائط وعلى الأرض.. نلعب لعبة المربعات والمثلثات والحيز والدوائر والأرقام ولعبة الخط..

لعبة الخطوط الملتوية والمنكسرة، لم أكن أعرف وقتها أن لتلك الخطوط التي تعيد تكويني وانتمائي إلى مراعي الطفولة، والتي كنت أعبث بها قد تستوطنني حتى النخاع!!

أبحث مع صغيرات الحي عن تلك الدمى التي نصنعها بأعواد أشجار التوت..نخيط لها ملابس أحلامنا، ومن صوف النعاج شعرا طويلا كطول صبرنا.. نصبغها بقشور الرُمان والحناء.. نتباهى بالألوان..فكانت لعبتنا الألوان.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

تذكرني طفولتي المقهورة بجواربي الممزقة وملابسي المزركشة..

رأيت في جواربي المقطعة ايحاءات كرة دائرية.. نملأ الجوارب بقطع من الأقمشة المهترئة والبالية.. نلفها ببعضها البعض جيدا حتى تأخذ شكل الكرة .

وأخذنا شكل المثلث واللون من علب الطماطم المرمية في الأزقة الواسعة..

نصفف ست علب في الأسفل ثم ثلاثة ثم اثنان وواحد على رأس المجموعة.. شكل الهرم ومن ثمة عرفنا المثلث واللون بألوان العلب المختلفة..

واكتشفت فيما بعد أن أهرامات علب الطماطم المصففة قد تأخذني يوما ما إلى أهرامات خوفو وحضارة الفراعنة..

وأنا أرسم كانت الأشكال تأخذ شكل المثلث.. المثلث الوهمي أو مثلث الشيطان.. مثلث برمودا الأسطورة التي رسمت نفسها على لوحاتي وألواني دون استئذان..

كانت السعادة في الحرمان، حينما نبتكر ونبدع من العدم أشياء تفرحنا.. تملأ نفوسنا الثقة والحب.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

كنت أبحث في تلك الأشكال والقطع عن طفولتي وعن ألواني المخبأة بداخلي..

كنت أريد أن أشبه زنوبيا وولعها بالصيد والقنص، وأن آخذ جمال نفرتيتي وقوة فاطمة انسومر ودهاء الكاهنة

وحكمة الملكة تينهينان..

كنت أريد أن أكون هكذا وليس مومسا تترنح على صدر الرجال وتبيع اللّذة للسذج والحمقى الباحثين عن تفريغ شهواتهم الدفينة بمواقع تجارة الرقيق الأبيض..

الرقيق الأبيض كلمة حضارية لمفهوم الجنس.. لغة جديدة في التعامل مع الأجساد.. مم.. مم..

أنا لا أريد من حريتي إلاّ قيود ذاتي..

أريد من حريتي أن تعيدني إلى قيود ذاتي؟

أنا امرأة يكثر وجعها مرة باسم الدين ومرة باسم الحرية ومرة باسم التقاليد ومرة باسم الأنثوية ومرة باسم التحرر ومرة باسم التيارات ومرة باسم الوطنية ومرة باسم الأمومة ومرة باسم الطفولة..

أنا امرأة يكثر وجعها مرة باسم الحب ومرة باسم الاغتصاب ومرة باسم الجهل ومرة باسم الذكورة ومرة باسم تعدد الزواج ومرة باسم العنوسة ومرة باسم الأسرة ومرة باسم لاشيء... ومرة... ومرة..

أنا امرأة لا تهوى المعارك الفاشلة والنظرات الساقطة والكلمات الجارحة والقبل المشبوهة..

أنا لم أكن عشتار ليهينها كلكامش حينما طلبت الزواج منه قائلا لها:

- "أي خير سأناله لو أخذتك زوجة..

أنت، ما أنت إلاّ الموقد الذي تخمد ناره في البرد..

أنت كالباب الخلفي لا يصد ريحاً ولا عاصفة..

أنت قيرُ يلوّث من يحمله..

أنت قرية تبلّلُ حاملها.."

ولكي ترد الإهانة طلبت من أبيها الإله "آنو" أن يخلق لها ثوراً سماويا يغلبه... لكن كلكامش قتله مع أخيه وصديقه أنكيدو.

هكذا حدّدت غرفتي أنفاسي وألواني وكلماتي.. هي قطع الجدران المسطحة والمستقيمة والمائلة.. هي الأبواب والمرايا التي أعطتني الإحساس بالثبات والقدرة على التكيف..

تلك المرايا التي كنا نبحث عن شظاياها في الحي ونرى فيها أجزاء من وجوهنا ونحن نضحك، لأننا نرى وجوهنا قطعا في قطع المرايا.. صغار هويتهم الألوان وصنع الأشكال..

البيت هو الانفتاح على الكون وباتجاهات مختلفة، أُلَوِن ذاك الفراغ اللامتناه الذي امتزج بالحنان.. وكانت خطيئة ضد الحياة أن لا نرقى بهذا السمو الروحي..

جزيرة النوارس

بقي في غرفته الفارغة وجدرانها القاتمة ينظر إلى المرآة حائراً تراوده الأفكار تارة وتغيب تارة أخرى.. تقلقه سائلة:

- كيف نجعل لحظة من الراحة دائمة؟

الكل يقوم بمهمة المؤثر..

- هل يشبه الفنانون الفلاسفة بلغة النظر والتأمل.. القادرة على إذابة الأشكال؟

وحده الفن الذي يعيش ذاته.. يتجرد من أنانيته.. ولكن عَرَفْتُها أنانية.. يسكنها الرسم أكثر مني.. يزاحمني فيها ويعريها أمامي، إنها امرأة بكل لون كألوانها التي تمزجها بأنانية مبالغ فيها.. تتذوقها بإحساس أرهقني وأتعبني من انتظارها أمام كل لوحة أجد نفسي فيها بعيدا عن أحلامها أو حتى في ألوانها التي تختارها بدقة.

وأنا..

- هل يمكن أن أتجرد من أنانيتي وممن هم حولي؟

وإذا كان لابد من الحب.. فيجب أن يكون بالكلمات وبالألوان.. مجردا من الأنانية..

كلمات تتلعثم وتترجم وترتعش وتصرخ.. إنه الإحساس بالحب، والفن هو الحب والألوان.. هو العذاب المتجدد بداخلي..

لم أكن أرى في مرآتي صورتي وهمومي بل كانت غرفتي الضيقة تزعجني، وما المرآة الكبيرة العالقة قبالتي إلا لإيجاد التوازن داخل الغرفة..

كي تصبح الغرفة الضيقة واسعة ولكي تضفي الجمال.. فلقد آثرت أن تكون مقابلة للنافذة لتزيد من الضوء بالنهار والاستمتاع بالمناظر الجميلة بالخارج وأنا بالداخل مستلقي على السرير..

أو ربما لتحدث التوازن بداخلي؟

كنت أكره تلك المرايا المركبة في السقف.. كنت أحس بالدوران، رغم أنها لا تحسسني بانخفاض السقف إلا أنها كانت تزعجني وتتعبني.. أرى نفسي أمشي فوق نفسي.

كانت فكرة "دق باب قلبك، ففيه وحده تجد العبقرية" تعني لي الكثير لقد حققت فكرة ألفريد دي موسيه في نفسي غايتها ، ، ألغت تلك الخطيئة التي سكنتني.. خطيئة الشيطان.. خطيئة ورثتها الطبيعة منذ الأزل..

وبجسم نحيل ووجه حزين وملابس تفوح منها رائحة نتنة وقف أمام النافذة يعيد التوازن وترتيب الأشياء أمامه وهو يردد بداخله:

- خطيئتك أن تعترف كاعتراف صديقك صاحب

الخمرة وهو يردد قوله في التوبة:

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً

فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحم

مالي إليك وسيلة إلا الرجا

وجميل عفوك ثم إني مسلمُ

ثم أدار ظهره للنافذة وعاد إلى سريره مرة أخرى يرشف فنجان القهوة، وهو يردد قوله كأنما يريد استكمال الفكرة العالقة بذهنه..

- لا داع للحزن ما دامت الأحداث الهامة تقع فجأة؟

كان يشعر بثقل نظراته وبهدوء واعتزاز إلى تلك الأفكار التي راحت تتسلل إلى مخيلته فتجمَّع الماضي أمامه.. مفعم بالعظمة والحزن..

يستحضر الوجوه التي عرفها وجها.. وجها... يقلب صورهن رويدا.. رويدا.. تذكر وجهها من بين الوجوه التي تعمد أن يغفل عنها.. شابة متوسطة القامة.. رقيقة.. قمحية البشرة تشع من عينيها العسليتين نظرة حالمة.. تزين رقبتها بملكة الأحجار الكريمة..

عقد لؤلؤي تتماوج ألوانه بين الأحمر والأزرق.. يؤكد على غناها في العيش، لكنها تبحث عن السعادة مثلي؟

وكم تمنيت لحظتها أن أكون المحارة التي تسكن فيها!

إنه عقد براق تشع منه ألوان الطيف حينما تغتسل المدينة برذاذ المطر الحالم..

حدق في عينيها يستقرئ تفاصيل معاركه معها وشحن الجو في ذهنه باحتمالات مختلفة وتناقضات كابدت حياته.. فانتزعت الطمأنينة من نفسه وقد صعقته الأحداث، ولبث مدة لا يدري ما عساه أن يفعل.. ثم ابتسم ابتسامة باهتة تكذب ظنونه تلك الأحداث المضنية.

كانت ملامحها تخفي أشياء مني فحاولت أن أرغم نفسي

على تذكرها.. في ابتسامتها.في طريقة كلامها.. خيالها وعنادها.. جمالها وصمتها.في ألوانها.. كانت أشياء مني تختفي فيها..

كانت "ايكوزيوم" تمتاز بالجمال وبالفطنة والذكاء والإغراء والدهاء وتميل إلى النقد والثرثرة والبكاء وتكره الصمت والوحدة والعنف..

ولم أكن أعلم أن "ايكوزيوم" هي جزيرة النوارس.. النوارس البيضاء التي تسكن عباب البحر وخضرة الأرض أنها تخبرني بخضورها الذي يدهشني.. كيف نسيت تلك الأشياء الصغيرة والتفاصيل المحملة بالذاكرة المختفية في حنانها الفياض وعيونها الواسعة..

في جزرها التي احتوّتني في جزيرة واحدة.. راحت تقص عليّ حكايتها مع الماضي الذي هربت من سماعه يومها.

كيف اكتشفت هذا كله مؤخرا بعدما غادرتني..

آه "ايكوزيوم" يا جزيرة النوارس البيضاء.

سكاكين الخيبة

كنت أضجر من صاحبي "مرزوق" أوستالين كما كنا ندعوه.. الذي كان يتفنن في تطويل شعره المتجعد..المتدلي على كتفيه العريضتين.. وجه مستدير يتوسطه أنف صغير مدبب النهاية.. غائر العينين.. بُنِيَّتُهُمَا تشعان رغبة في التحدي والمراوغة والفطنة.. قوي البنية.. حيوي وخفيف.. كانت تجري في دمائه أفكار ماركس ولينين وتلك النظريات التي ترمي إلى السيطرة على المجتمع وحكم الشعوب بالحديد والنار

وتوزيع المناشير والكتيبات والحديث عن السياسة وقلب الأنظمة التي تنتهي في السجن.. أمور لا تعنيني فهي تهلك صاحبها قبل أن يتنفس.

كان يقول لنا دائما:

- فليعمل كل واحد منكم ما عليه من واجب؟

ونسي بل تناسى أنه يعمل ضد واجبه ؟

كانت طاولة واحدة تجمعنا.. عند المساء نلتقي في مكتبه يوما و آخر على طاولة المقهى.. مقهى "روزا" للطلبة.

اسم لامرأة تحترف التجارة.. كانت ممتلئة الجسم.. رزينة وحادة الطبع وبنظارة سوداء كبيرة تخفي أثار ندبة غائرة فوق حاجبها الأيمن..

كانت في أواخر الأربعين من العمر.. شعرها البني الهفهاف يرقص فوق جبهتها العريضة.. لا نعرف عنها شيئا سوى أنها امرأة هربت من بطش النازية وفتحت بالحي العتيق مقهى صغيرا.. يتجمع فيه الطلبة ورجال الأعمال الكبيرة وأحيانا المشبوهة.. وجوه لا تختلف عن أفكار ستالين وهتلر

ونابليون... أسماء لأصدقائي!

وكنت أحيانا أختلق الأعذار قصد الذهاب إلى المرقص الليلي حيث تنطلق السهرات الليلية.. حيث تتحرر القيود وتفقد العقول اتزانها..

كنت أتسلى وما أقساها من تسلية تعذب النفس.. كنت أدس رأسي في تلك الأضواء والكؤوس الممتلئة.. أنسى أنني رجل بلا رجل..

أنسى أنني بلا امتداد لحياتي القادمة.. أريد أن أنسى تلك الكشوفات الطبية والتحاليل المخبرية.. أنسى وجوه الأطباء والمآزر البيضاء.. أنسى أنني رجل بلا رجل!

كانت رغبتي المستهترة في عدم الاعتراف إلى صديقي "توفيق" كي لا تحاصرني نظراته باستهتار رغبتي.. أن لا يعرف سري.. كنت أرى دهشته من تصرفاتي وأفكاري وليالي الحمراء وقوله الدائم لي:

- لا تتحسر على ما فاتك.

حسبتها أول الأمر مجرد نزوة أو إحدى مبالغاتي وإحساسي بالاختناق داخل الغرفة واختلاط روائح المكان يدفعني إلى الخروج.واضطرَمَت الأفكار تزعزع خاطري في حيرة وذهول..

كنت شديد الضيق من نفسي ومن الواقع رغم استعدادي لمناقشة أكثر الآراء حدة.. أرحب بالجدل واستنكر التعليقات الفارغة.. كل تصرفات أحدهم كانت تعكس انهزاما داخليا.. وثقة مصطنعة وابتسامات فاترة وجدية مبالغ فيها.

لم أكن أؤمن بشيء مما يقولونه أو حتى لمجرد حب الاستطلاع.. فلقد كانت كلها تجارب فاشلة.. ممزوجة بالوهم والدهشة والوجل والاستنكار والتذمر.. ممزوجة برائحة السجن العفن.. إنها نفوس لا تسلّم بالهزيمة.

لم نكن نعرف من هذه الأفكار غير مشروع مجتمع جديد.. ووثائق تكتب من رجال يسكن قلوبهم غل وأحلام السيطرة وما نحن الصفار إلا آلة للتنفيذ!

أو تأنيب صارخ وإنذار أحمر يقول:

- ألم أقل لكم ذلك؟

ومن ثمة أدركت أن الخوض في هذه المواضيع ما هو إلاّ مجموعة من التقارير اليومية التي تضاف إلى قرارات وتقريرات قديمة.. والحقيقة أنني تحاشيت الخوض في مواضيع فاشلة مسبقا وتركت تلك الخيوط المهملة في ذهني تلف بعضها البعض وتنتهي دون تصور كامل..

كل ما كنت أفعله عند ولوج المكتب.. أن أقف عند صورته.. أبوهم الذي علمهم السحر..أمعن النظر إليها.. تراودني أفكار وأفكار وأتخيله يسخر منا ويضحك لأنه استطاع أن يصنع منا دمى لتصوراته وأوهامه وأحلامه.

وتمنيت أن يحركني الحلم لأصنع من نفسي حلما يتلذذ ويتعذب به الآخرون.

كنت أعود إلى البيت مع شروق الشمس.. أجده فارغا.. مظلما.. صوتها يسكن جنباتي.. يدغدغ خيباتي، وشهيتي إلى فراشها تكبت آلامي.. أصبت بشلل مفاجئ فأحسست أن جسدي يخونني ورفضت الخضوع لإرادة البكاء التي كانت تلازمني كلما عدت إلى البيت..

بيت مراياه متعبة من صوري الفاشلة..

كنت لا أزال أحيا في تلك النشوة ورغبة البكاء التي تجعل الإنسان لا يرى الأشياء الجميلة إلاّ حينما يفقدها.. ارتكبت حماقة حينما تركتها تغادر المنزل دون رجعة..

قررت أن أبيح لنفسي تلك الخطيئة التي لا تغتفر.. تملكني إحساس بأن أجثو عند قدميها وأطلب بقاءها معي..

ولأنني رجل بلا امتداد عدلت عن ذلك وسكاكين فراقها تمزقني.. ظلّلت أتأمل وجهها وأراقبها و هي تجمع أمتعتها حتى صوري معها أخذتها..

أخذت حركاتي وسكناتي وأنفاسي.. أخذت رائحة عطري وتركت أشعار أبي نواس رثاء تعزي به خيباتي..

بقيَت واقفة تخمن في الوضع الجديد ورسمت على محياها ابتسامة هادئة تخفي حيرتها وخيبات الفشل.

ما أكثر ما تمنيت أن تلك اللحظات لا تدوم.تلك اللحظات التي عرّتني عن حقيقتي.. حقيقة خجلي التي كنت أنفثها في سجائر الدخان التي ملأت الأرضية وملابسي المهملة

على الأريكة وكؤوس الشاي المبعثرة هنا وهناك..

كان اضطرابي يزداد يوما بعد يوم، وكلما غرقت في التذكر يعيدني بودلير إلى التفكير في الخطيئة.. يعيدني إلى حالة عدم التوازن التي تدفعني إلى العجز، وربما يعيدني إلى الوجود بوجه آخر.. أكثر جدية وأكثر صدقا ونقاء..

كنت لا أريد أن أفصح بمكنوناتي لصديقي "توفيق "بأنني قتلت الحلم بداخلي.. كنت أخشى قوله:

- أنك مازلت تحت تأثير تلك الرؤيا.

تلك الرؤيا التي أفقدّتني صوابي وجادة الطريق، ولأقنع نفسي أنني أكثر التجارب منه.. كانت شهوتهن تسكنني ولذتهن تتملكني، وخيباتي التي لم تقنعني بعد برغبة انتصاراتي تفضحني مسبقا في تلك الكؤوس الزجاجية المملوءة بانكساري، والملونة بانهزامي كل ليلة.

لم أرد أن أكون شبيها بنزار في اعترافه لبلقيس أنها آخر النساء اللواتي عرف.. يبدأ معها الحياة؟

ولأنها كانت أول وآخر النساء لم أعترف لها.. فلقد أخذت عطري معها..

لم أجرؤ على قولي لها أن تترك رائحتها في أنفي.. لأن نابليون قد فعلها قبلي، وهو عائد من الحرب طلب من جوزفين أن لا تستحم حتى يعود..

كان عائدا إلى رائحتها..

آه.. رجال تسعدهم رائحة ونساء تسعدهم قبلة، وأنا تسعدني كأس فارغة.. كأس ملونة بعطر النساء!

الكؤوس الملونة

رأيتها في منامي بلباس أجوري مرصع بالدر والجواهر.. واقفة على تلال الكثبان الرملية.. على رأسها تاج الملكة يتلألأ بذهبية رمل يفرش امتداد أرض عريقة الأمد...

كانت امرأة فاتنة.. جذابة.. رائعة.. سمراء اللون.. قوية الشخصية.خيالة.. داهية.. رسامة.. ترسم حروفها بالإغريقية والآرامية.

قالت لي أنا زنوبيا وهذه مملكتي تدمر.. هذه قلاعي وحصوني وجيوشي.. آثاري شاهدة على العظمة والعزة والمجد والثراء.. وانتحرت بالسم لأبقى دائما عظيمة على أورليانوس.

كنتُ مضطربا لكنها علَمّتني أن لا أضطرب أمام تلك التماثيل المحنطة.. الصامتة في كبرياء والجميلة في الذاكرة.

جعلني اضطرابي أنسى أزيز سريري الحديدي وغرفتي الباردة وأسبح في قصر رخامي كبير، بأعمدة من المرمر المزخرف وحدائق غناء مسيّجة بخرير مياه تطوف حول باقة من الألوان الزاهية.

فتسري في شراييني أحلام امرأة ترفض الهزيمة وترفض الأسر تحت وطأة أورليانوس، وبكبريائها تركته أسير جمالها الذي تركه يلهث إلى مسامَرتها فتتهمر دموع خيبته في مخدعها ، وانتهى قوله بأنها زنوبيا..

قوة المشتري.

كانت تتوسع لتكمل حلمها فتوسعت على جسدي الملتهب وأسكنتني واحات النخيل وأشجار الزيتون والملمتي

رمالها الذهبية فرمتني بين غزلان المها والريم لتهب علي نسمات صيف ندية تبلل جسدي العاري، فأستفيق على أزيز سريري الحديدي.

في الليلة الثانية زارتني في المنام.. امرأة جميلة بلباس أبيض شفاف.. رأيتها جالسة على رأس أهرامات عظيمة.. أهرامات خوفو.. خفرع.. منقرع..

رفعت رأسي أبحث لها عن شكل ألفته كل ليلة في منامي وأسأل نفسي:

- قد تكون ملكة النيل..
- هي كيلوباترا.. إنها تعانق أنطونيوس مرقس..
- لكنها امرأة وحيدة.. إنها تنتظرني أنا؟

انتظرّتني لأقف على عجائب الملك خوفو وبنائه للهرم الكبير بالجيزة.. أراد أن يخلد اسمه..

ضحكت ملآ المكان وأنا أردد الخلود قائلا:

لم يكن كلكامش وحده يريد الخلود والبحث عن سر الوجود.. لقد كان الفراعنة هم كذلك يؤمنون بالحياة بعد الموت..

فحنطوا أجسامهم وما كانت الأهرامات إلاّ قبورا لحياة أخرى.

ومن اللباس الأبيض الشفاف وتاج الملكة والصحراء القاحلة وجدت نفسي أسبح بين المروج والبساتين والسلاسل العشبية.. تأخذني الأرجوحة يمينا ويسارا وهي بجانبي.

كانت تشبه الأميرة الجميلة الباحثة عن الخضرة.. الملكة أمتيس التي قدم لها زوجها الحدائق المعلقة.. حدائق الجمال كي لا تشعر بالملل..

ورأيتها امرأة كثيرة السفر والترحال.. ممشوقة القد.. حكيمة.. تقود قافلتها من العبيد وبجانبها خادمتها.

قلت لها:

- من أنت؟

قالت:

- أنا جدة الطوارق وهذه خادمتي "تاكامت"..

قلت:

- تشبهين "ماتواكا" أي بوكاهونتاس.. الفتاة التي تحب اللعب.. فتاة شجاعة وذكية.. بوكاهونتاس بطلة

السلام.. قرأت هذا في حكايات الأطفال.

قالت:

- أنا أم الصحراء الإفريقية أسكن بلاد الأهقار.

قلت:

- إنك إذن تتهينان "أم الأشراف" حامية الأهقار وأم الطوراق؟

امرأة تسكن الأودية والجداول والمروج الخضراء.. كانت رائعة الجمال، وبأخلاقها النبيلة شيّدت مملكتها الكبيرة..

وفي اليوم التالي لم أملأ الكأس.. شربت نصفه والباقي تركته على طاولة الأضواء وعدت إلى البيت..

رميت بجسدي المتعب على سرير الأحلام.. سرير فارغ.. كانت تلك الليلة باردة.. صحبتني امرأة جميلة.. فارسة ثائرة على صهيل جواد مغوار.. تحمل سيفا براقا وترتدي رداء العظمة.

رأيتها تقاتل بشراسة جنودا مدججة بالعتاد السلاحي الثقيل.. رأيتها بطلة وهي تنقذ البطل الشريف بويفلة من موت محقق و.. و..

كانت فتاة ساحرة وذكية ومتصوفة.. شجاعة وقوية تخوض معاركها ضد الجيش الفرنسي ببسالة.. رأيتها في وجه جميلة بوحيرد وحسيبة بن بوعلي ونساء الجزائر يرفعن علم الحرية بألوانه الثلاثة ويزغردن زغاريد الحرية.

فنهضت من نومي العميق على زغاريد الفرح تملأ أذاني وأنا اهتف تحيا.. تحيا.. الجزائر.. تحيا الجزائر.. الجزائر.. الجزائر..

ومرة رأيتها امرأة تحمل في يديها الخبز.. تدخل بيتي بابتسامة ألفتها.. لقد كانت تستقبلني في بيتها بابتسامة الفرح والحب..

وكنت أردّد في خاطري شعر درويش:

أحن إلى خبز أمي

وقهوة أمي

ولمسة أمي

وتكبر في الطفولة

يوما على صدري يومي

وأعشق عمري،

لأني إذا مت

أخجل من دمع أمي!

كنت أحبها وحدي، والموت وحده اغتصبها مني.. الموت وحده ألبسها ثوب العروس وألبسني حزني.. منحني الكثير من الدمع لأذرفه عند قبرها..

دموع الصمت ورحلة عمرها تمر بذاكرتي كلما أتذكر خبزها..

تركت خبزة على الطاولة ورحلت دون أن تحدثني بكلمة.. أسرعت الخطى وراءها فلم أجد غير ظلال الأشجار تلون المكان تحت الضياء ونسمات باردة تغلق الباب خلفي..

وقفت مطولا عند الباب الذي أفزعني غلقه وأنا أردد في سري..

- إنها فتيحة.. فتيحة.. جاءت من القبر تزورني.. تعطيني الخبز كما تعودت..

يشاطر صدقي أكذوبة باهتة اللون ترتعش كلما حاولت أن أرى جسدها أمامي بعيدا عن القبر..

تحضنني بسذاجة الأطفال البريئة.. تدخلني قلبها قبل بيتها.. نختلس معا كلمات ساعة الصفاء.. نضجر من واقعنا ونذوب فيه رغما عنا.. تتوسع أحلامنا بغد جميل يحمل أثواب الفرح ويرسم أروع الساعات التي تصرخ في وجه الأنين..

كان خبزها شهيتي الأولى.. .

كانت ابتسامتها شهيتي الثانية...

وكان وداعها خبزا أحلم به عند قبرها...

وقتها لم أستطع أن أكفكف دمع الصغيرة "صفاء" وأقول لها أن أمك ستعود لأن الألم أكبر مني ومنها!

كنت أريد أن أصرخ صرخة أرخميدس (أوريكا.. أوريكا) أي (وجدتها)، ولكن الكلمة بقيت في حلقي عالقة.. لا تريد أن تخرج.. كانت تقول لي:

- لم تجدها بعد.. إنها ليست هي.

- هل كنت أشبه نابليون الذي وصل إلى السلطة بفضل النساء؟

لعب لعبته الغرامية مع المثيرات والماجنات والمتزوجات.. كان عشيقهن.. وبفضل كل واحدة وصل، وشيّد امبراطوريته العظمى.

كنت أسأل بإلحاح:

- لماذا ينتحر العظماء؟

لماذا يموتون ميتة المفاجأة.. انتحار بالسم.. أعشاب سامة تنهي عظمة وقوة رجال ودهاء نساء غيّروا مسار الحياة.

كنت أعتقد أن ذاك الرجل الكورسيكي القصير لا يعرف قلبه الحب.. الأشد صلابة والأقوى دهاء أن يكون عاشقا.. مضطربا.. غيورا.. كئيبا.. يسئم طول الانتظار وهاجس جوزفين كابوسا يهدده..

عذاباته جعلته يحلم بمداعبتها، وهي المرأة التي كانت تعتز برؤيته يحبها مثلما يحب المجد..

أن يختار بين المرأة والمجد؟

أن يخير بين العظمة والملك والسلطة والجاه وامرأة اسمها جوزفين؟

وإما أن تتصف هي بالمثالية والخيال أو يتصف هو بالحذر والشك؟

وبين أن ينسى باستور.. رجل الجراثيم و الفيروسات ليلة عرسه وهو بين أنانبيب اختباراته أنه رجل لامرأة أو رجل الأنابيب والأبحاث!

- وهل وضعتني "رجاء" لأختار بين الرجولة والأمومة؟

كنت أفتقد للطمأنينة والأبوة التي كانت تورطني في ليالي الفارغة..أختبئ في فراشي وأتلذذ بأزيز السرير وهو يقتل صمت المكان.. أتلذذ بصوتي يرد على صمتي.. أعود إلى دهاليز طفولتي الماضية.. أعيدها أمامي ليلة بليلة.. أعيد لعبة الشطرنج وكرة القدم والغميضة.. أعيد مغازلة البنات أمام الثانوية، وكيف نلعب لعبة الضحك والهمس والمواعيد الغرامية..

كنت أنتهز الفرصة.. فرصة الظلام حتى أكون راضيا عن نفسي، فاضطرابي ودقات قلبي والرجفة التي كانت تصيبني كلما تذكرت أنني بعيد عن ذاتي تزيد من انفعالي وقشعريرة جسدي.

كنت أتغاضى عن العيوب وأمتنع عن التدخين لساعات طويلة.. عن تساؤلاتي وشكوكي.. عن مراهقتي التي انتحرت بداخلي وراحت تدور في ساحة الاتهامات، ومن ثمة أجبرت الطمأنينة على الترقب!

كنت أحمل تأويلاتي واحتمالاتي وحتى حماقاتي إلى حقد شخصي يتحدث بداخلي، وبصوت منخفض مبعثه إحساس بالسعادة وابتسامة استهزاء تفاصيلها نوية تأنيب ضمير!

كنت أعي أنني أصبت بنوع من العمى النفسي نتيجة لصدمتي التي امتدت في كل الاتجاهات.. تُصارع غيبوبة اعترتني منذ أن لَوَن الاصفرار وجهي وكاد يفقدني السيطرة على كل تخميناتي.. أنني مريض..

كانت لحظة الترقب والانتظار تستمر وتنمو بداخلي.. ترفض تلك العلاقة التي ارتبطت بها، وأحيانا ترفض حالة الترقب التي كانت ملامحها متعبة ترسم خيوطها على محياي.

كان الماضي ينتفض ويلعن خوفي.. خوفي الذي يزيد من ارتباكي وضجري وتوتري وحتى من تنبئي!

الرعب فجر درجة الجنون بداخلي والهيجان إلى أخطر احساس هدد وجودي، وهو الرغبة في التخلص من وجودي؟

نزعة عدوانية ودوافع دنيئة اختفيت وراءها وهي رغبة الخلاص من مزاجي الذي حطم إرادتي وأصبحت الانفعالات مجرد انفعالات وقتية تثور ككذبة تزين دواخلي.. أنني مازلت لا أؤمن بالخداع وبالنزوات التي دمرت حياتي!

كانت إجاباتي تضايقني، تخون جرأتي وتقديري..

- لما حدث ؟
- وماذا سيحدث؟
- ولما يحدث ؟

إجاباتي هذه المرة تغلبت على قوة ضعفي واقتناعي بأن التنازل أكبر من الخسارة التي أتعبها جبني وحزني وغضبي وحتى استكاري!

لم تعجبني طريقة لباسي هذه المرة، وقبل أن أغادر البيت توجهت أكثر من مرة إلى خزانة الملابس.. أفرغتها بجنون وكأنني أبحث عن لباس لا أجده بداخلها..

لباس من الوهم صنعته بداخلي وبداخل الخزانة.. لباس يمكن أن يذكرني بقيمتي وقوتي وعنفي وسخريتي منهم.

لباس زحزح قدرتي على امتلاك غضبي..

عاجز أنا أمام صبري الذي بتركل أوصالي المشحونة بتيار كهربائي قوته أشد من قوة تحملي!

كنت دائما أبحث عن ذلك العنف الذي سكنني منذ الطفولة.. سكنني بين طاولات المدرسة.. المخبأ بين أيدي المعلم..

المعلم الذي تفنن في صنع وجعه على أجسامنا الصغيرة.. كان ينزع سراويلنا ويضربنا على مؤخرتنا ونحن نصرخ من شدة الألم وأحيانا نخجل من نظرة زملائنا فنكتم الصرخة بداخلنا حتى تحرقنا ألما.

ومرة تجمع أصابع اليد وتضرب على الرؤوس.. أصابع اليد كانت وحدها تعمل عمل السحر في الأوصال.

ومرة يوضع القلم بين الأصابع ويضغط عليها بشدة، أو يلوى القلم في حركة دائرية وهو ضاغط على الأصابع بقوة.. بقوة...

وحدها الأصابع شكّلت لغة الألم والتعب!

ووحدها الأصابع شكّلت لغة اللّذة والحنين!

كانت مرحلة التعليم الابتدائي مرحلة جحيم بالنسبة لطفل كره المدرسة.

مرحلة جحيم ..نقش العلم في عقولنا كما نقشت العصا شكلها على أيدينا الصغيرة !!

وكاد المعلم أن يكون رسولا؟

تمر الأيام والسنون ويكبر جسمي وتكبر أيامي بساعاتها وأحلامها ومتاعبها..

مراهقة تميزت بالعنف والاندفاع والانفعال والإحباط ، والقهر..

مراهقة عواطفها جامحة تدفعني إلى القنوط واليأس ومن ثمة إلى الانتحار.

كنت أشعر أنني لم أعد طفلا.. طفلا مخلصا في ولائه للعائلة وللمدرسة وللزملاء.. مخلصا لذاته بل ثائرا ضد كل شيء..

مراهقة تعترف بالنضج!

مراهقة أرجعتني إلى تلك الطفولة التي تسأل عن الله أين ولماذا وكيف، مراهقة اللعب بالأسئلة، ومراهقة حررت تفكيري وأعادت إليّ التوازن وبعثت في نفسي الطمأنينة وأدركت الإجابة عن أسئلتي بالبحث، فكانت إجاباتهم لا تقنعني.

كنت أحس بأن هناك سرا يحاولون إخفاءه عني أولا يعرفون؟

وأحيانا يمتنعون عن الإجابة بحجة أنني مازلت صغيرا.

مراهقة أتعبتني باضطرابي وانفعالي، مراهقة العناد والسلبية وعدم الاستقرار والبحث عن الحرية المكبوتة.

مراهقة تشعرني بالخطيئة وبالذنب والخوف وعدم الثقة في نفسي وفي الآخرين.

مراهقة متمردة تتحدى الأراء والأوضاع، ومراهقة تبحث عن الذات الأخرى التي أراها في جذب الانتباه... انتباه الآخر.

مراهقة ترفض أن أكون رغبة أبي.. تحقيق حلمه الذي فشل هو فيه.. أبي الذي كان ضحية ظروفه، أو بالأحرى ظروفه التي كانت ضحيته؟

لأنه لم يقدر الأمور تقديرا جيداً.

مراهقة توقفني أمام المرآة لساعات طويلة، أتحسس ملامح وجهي وأعاود تسريحة شعري مرات ومرات وباتجاهات مختلفة.

مراهقة ترفض شكلي.. ترفض أنفي الخشن أو وجهي المستدير.. ترفض قصري أو طولي أو حتى امتلاء جسمي.. فكنت أقلب الخزانة رأسا على عقب للبحث عن لباس يلائم شكلي لأنني مللت نفس الألبسة وربطات العنق التي تخنقني.. ربطات العنق التي تأخذ شكل وألوان الأفاعي.. و.. و..

واليوم ارتبطت أكثر..

ارتبطت بالأخبار، أكثر من ارتباطي بمكتب ستالين.. ارتبطت بوجه آخر أكثر ألما وتضحية.. ارتبطت بالصورة التي كانت تكشف دواخلي.. تحرّضني ببطء على الصمت الذي أصبح هدية الأيام كل صباح..

يطرق باب غرفتي ويغادرني عندما أنام.. ينزع كل تفاصيل يومياتي التي تسكنني دون استئذان..

مازلت أذكر تلك العيون الحوراء التي كانت تحسسني أنني أسبح في بياض بياضها وأغرق في سوادها، لكأنني أسبح في بياض البحر الأبيض المتوسط وأغرق فيبتلعني محور مثلث برمودا.

وهي من حولي تمارس فنون القتال على جسدي!

تطارد شهواتي المكبوتة وتجتاح قلاع ذكرياتي المحصنة.. تجوب دهاليز طفولتي البعيدة فتدغدغ أحاسيس الصبا، وتمضي لتبعثر خيوط المراهقة دون أن تبالي على طاولة العمر في عز المشيب!

وأنا بين ذراعيها أبحر بقواربي القديمة في بياض عينيها التي تطعنني في أعماقي!

أدمنت...

مدمن أنا على الزجاجات الخضراء..

مدمن أنا على كؤوسي الممتلئة.. الملونة بثغورهن.

مدمن أنا على شفاههن الملونة..

مدمن أنا على أساطير الماضي.. أطوف حولها كطائر الأحلام يشتهي طوق الغرام و القبل و الأحلام..

مدمن أنا على نسائم البحر وحزم أمتعتي كل ليلة تحت رذاذ المطر.

مدمن أنا على صخب المدينة والليل والنجوم والكواكب والضوء..

مدمن أنا على أزيز سريري وكؤوس الشاي الصحراوي الأخضر..

مدمن أنا على صمتي وكلامي.. .

مدمن أنا على الجوع والعطش والوجع.. .

مدمن أنا على مساءاتي المتعبة وهي تلتهم ذكرياتي وتتبش في انتماءاتي بحثا عن خرائطي وعن قافلة أجدادي...

امـــرأة بلا لون!

تتبعثر ذاكرتي كلما تخونني الذكريات وهي تسترجع نفسها رغما عني.. تعود محملة بالصمت والمرارة.. تعود محملة بالخيبات والانكسارات.. تعود محملة بالفرح النادر والألعاب الخشبية.تعود لتبعثرني على وسائدي الباردة وغرفتي الموحشة.

لتعود مرة أخرى الألوان في صورة ابنة أختي "سحر" الطفلة الصغيرة وهي تصعد على الكرسي لتصل إلى المرآة

وتفتح أدراج الخزانة.. تعثر على أقلام الكحل وأحمر الشفاه والمشط وبعض الخواتم الذهبية...

تنظر إلينا.. ثم تضحك..

ضحكاتها تقول أنها وجدت لعبتها المفضلة.. لعبة الألوان ثم ترسم على وجهها خطوطًا وبأحمر الشفاه تصبغ حواجبها وخدودها.. لا تعرف سوى أنها لوّنت وجهها كما تفعل أمها وتضحك.

تضع الخواتم في أصابعها وتضحك وتمشط شعرها وتضحك.. كانت تضحك وهي تنظر إلينا..

ضحكاتها تقول إنها رسمت الألوان بطريقتها وشكلّتها كما يحلو لها وهي تضحك..

ضحكاتها تقول إنني أنثى ووجدت ما كنت أبحث عنه..

ضحكاتها وهي تنظر إلينا تقول:

- إنني امرأة أمام المرآة..

آه.. صغيرتي ما أجمل ضحكاتك ولعبك بالألوان أمام المرآة وأنت صغيرة؟

وتبعثرت ذاكرتي مرة أخرى لتقول لي أن أمي لم يكن لديها الألوان.. ولم ألعب بها كما الصغيرة اليوم... أمي كانت تعرف الحناء والكحل.. ليس لجمال عينيها بل لعلاجهم من الرمد..

أمي لم تعرف لعبة الألوان أمام المرآة.. لم تكن لديها مرآة.. لأن أمي كانت جميلة بلا ألوان أو مرآة..

جمال الجبل هو السر.. سرها في تلك الخطوط الخضراء.. في ذلك الوشم الذي يزخرف تقاسيم وجهها وأذرعها..

أمي كانت تصنع من اللون الأخضر جمالا خاصا بها ولغة تحكي بها دواخلها.. كانت تقول لي دائما بلغتها :

- الجمال هو سر.. سر الحروف.

وبعدها فهمت معنى سر الحروف.. أي تقاسيم وملامح الوجه.. زين الجبل!

آه أيتها المرآة!!

وآه أيتها الألوان التي نسيت فيك جنون رغبتي وجنون غيرتي وجنون هزائمي وانتصاراتي...

ونسيَّت أمي جنون أنوثتها؟

كنت أحترم صمتي الذي يخونني مع كل لون وأمام كل لوحة تكشف هوامشي المثيرة وتفاصيل ذاكرتي وبقايا طفولة مبعثرة أتحاشى تذكرها!

ربما كانت تزعجني ألواني التي كانت ممتلئة بالشهوة والجنون وتوقظ بداخلي بقايا الشبهات.. فتشعرني بالندم رغم كراهيتي.. تشعرني بتهمة الاغتصاب وبالحماقات..

كانت ألواني تمنحني صفة الشرعية وتمنحني صفة الاعتراف وصفة التميز، لأنه لم يبق من العمر إلاّ القليل!

كنت أمارس الحب بالألوان وشهية الاشتعال بالفرشاة فيستوقفني مزجها أمام معركة تتسع لأكثر من لون وأكثر من بداية وأكثر من وشم أخضر تفننت أمي في رسمه على جسدها وجسدهن!

يقرينـي مزجها من وجوه أعيد تشكيلها أو جمع أشلائها بأحاسيس تحترف القتل العمدي!

القتل العمدي الذي سكن كل لوحاتي ولم تستطع ولا واحدة إحياءه من جديد...

صورة قبر أبي!

كان أبي يسكن خلف الألوان.. يمزج نفسه بنفسه.. يُدَلِّلُني من بين الألوان ويبتسم عند كل لون لا يعجبه، ويقهقه عندما تتعرى ألواني عن رغبتي.. ويصمت إن بدّت ألواني باهتة.. تقتل بداخلي رغبة التلوين والإثارة!

كنت أميّز رائحته ومرآته الصغيرة ترسم نفسها على لوحتي دون أن أحددها بفرشاتي.. لحظتها شعرت أن أبي قريب مني كلما اقتربت من لوحاتي..

لم يعد أبي يسكن القبر.. أصبح أبي يسكن لوحاتي ويسكنني في الألوان ؟

كلما أحس بالضجر والملل والحزن أهرب إليه.. أجده ينتظرني على طاولة الألوان.. يعبث بالألوان والأقلام والأوراق..

كان المَرْسَم لأبي!

غرفة المرسم في العِلِيَة.. تطل نوافذها من الجهة الشمالية على زرقة البحر ومن الجهة الجنوبية على أشجار الصفصاف والنخيل..

كانت صورة النوارس البيضاء وهي تحلق في الفضاء تلعب لعبة الألوان.. تسرق سمكتها من قاع اليّم وتطير.. تعاود التحليق واللعبة نفسها.. مزج اللونين الأبيض مع الأزرق.. سماوي.. كنت لا أملك سوى الإعجاب!

فحاضري امتداد لماض بعيد يحرضني على معرفته..

يحَرِضُني على أن أفرغ كل ألواني في الذاكرة المنسية.. أن أبحث في الفينقيين عن لوني الآجوري وعن أشياء جميلة من آثارهم التي تسكن المتاحف.. من أواني فخارية دفنت في أعماق الأرض، من نقود مطبوع عليها صور الملوك.. قطع تحمل صورة جانبية لرأس امرأة على رأسها تاج وأمامها رمز النصر، وأخرى لرجل واقف على قاعدة صخرية ومتوج بتاج له ثلاث أسنة وقد كتب عليه ايكوسيم.. اسمي أنا.. جزيرة النوارس..

كانت الأعياد وحدها تضفي على الأيام قدسية الزمان والمكان.. قدسية تشعرني بالعظمة والكبرياء والتباهي.. كل يوم وساعة تحكي بطولة شعب وحكاية أم ودمعة رضيع..

كنت أسميها أعياد الألوان.. الأبيض والأخضر والأحمر، ولأول مرة تخونني الألوان.. لأنني لا أريد أن أمزج هذه الألوان الثلاثة.. أريدها طبيعية وحرة..

أريد ألاّ يتسلل لها مزاجي وتعبي وهمي وألمي.. أريدها هكذا.. ذاكرة ؟

لتعود ألواني مرة أخرى في شكل صور أطفال أبرياء ودموع نساء وصيحات رجال..

كانت تلك الصور تؤثث لروح أخرى.. تفزعها الألوان المميتة بطريقة أخرى..

بطريقة أكثر ما يقال عنها أنها بشعة.. لعبت لعبتها الألوان على أجساد بريئة.. لعبت لعبتها في غزة ونابلس وبنت جبيل وبعلبك ومارون الراس وصور وقانا والعراق و.. و.. و..

على أجساد بيضاء اغتسلت باللون الأحمر، وبعد فترة لون أحمر داكن، وبعد فترة لون أحمر يميل إلى السواد، وبعد فترة لون أسود.. أسود، وارتسم الموت بلونه الأصفر ساعة الرحيل!!

اليوم فضحتني الألوان.. فضحت عجزي أنني امرأة بلا لون.. امرأة لا تمتلك في جعبتها غير التهد والحسرة والألم.

ألواني استوطنت عجزي وعدم قدرتي على الرسم، فلون الدخان قد زين سماء لبنان وفلسطين والعراق وكحلت النساء به عيونهن في ذهول ودهشة الفجيعة!

استفاقت المدن على جنون الألوان وهي تغازل الأرواح والأفق بوجع الأيام المتعاقبة.. معلنة بداية ماض بعيد، لتقلب الموازين وترتعش الذاكرة على عويل نساء وصراخ أطفال وقهر رجال..

ليبقى اللون الأحمر القاني يختزل الرغبات المكبوتة ويعترف أنه سيد الجنون..

لون يعترف أنه تعب من تلوين بياض المدينة وزرقة البحر وطهر البراءة.

لـون يعـترف أنـه حمـل فـوق طاقـة التحمـل كـل الألـوان البشعة.. المتوهجة.. لون بركان من نار!!

لون يقـول لا.. يقـول:

نحن شعب يحب الحياة!

نحن شعب يريد أن يحيا!

شعب يريد أن يعيش!

ولون درويشي يقول بلون الشعر:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

منكم السيف ومنا دمنا

منكم الفولاذ والنار ومنا لحمنا

أعـترف أنـه لـو كـان بيـدي لمنحتـه فرصـة الحيـاة ومـلأت سماءه بطيور النوارس الهاربة من دخـان القنابل المدوية..

أعمـار قـصّرت تحـت لحظـة الجنـون.. لحظـة الهـستيرية والمكابرة.. أضحت الأعمار لا تساوي ذرة تـراب..

وإذا بي كنت أحيا اللحظة.. اللحظة التي كانت تفصلني

عن الزمن والمكان.. لحظة لا تعترف بالشهوة و لا تبارك لحظة تستدرجني إلى الاعتراف..

إنني ألوِّن صدقي بالدهشة فتحوِلني من حماقة الصمت إلى حماقة الصدفة التي جمعتني به أمام مبنى الجامعة.

كان عُمْر آخر ينتظرني.. عُمْر يعنيني ويؤرخ لتفاصيل حياتي القادمة!

عمر لفتني الانتباه.. أنني أضيِّع حياتي في صمت العلِيَة.. في المرسم.. عند أبي .

اليوم أريد أن أخرج أبي من صمته إلى أحلامي التي سجنتها بين الألوان وعند نافذة العلية.

أن أتركها تحلق مع النوارس البيضاء، تأكل السمك وتلعب لعبتها آلاف المرات.. أقنعت نفسي اليوم أنني امرأة.. ولدت اللحظة.

لم أكن وقتها أشعر برغبة في الحديث مع " ثريا" جارتي.. باب بيتها قبالة بابنا وهي تتحدث عن مغامراتها العاطفية، التي كانت تبدو لي حماقة و عبثا صبيانيا.

فثريا قادرة أن تصنع من حاضرها أضرحة تبكي عند شواهدها!

ضحكت لحججي رغم اقتناعها وأدهشتني مراوغاتها.. كانت تسقط عنها آخر اعتراف أربكها بانبهار وبمتعة، وبلذة تستلطفها بعذوبة وتشعرها بوجودها.. أحسست أن بداخلها خراب تحاول أن تلملمه..

كنت أحس بنبرة حزن تسكنها.. تعبر عنها باللاخجل من أي شيء.. أعادتني كلماتها إلى ساعة لمحتها في شارع المربي بن مهيدي أحد رموز الثورة الجزائرية الكبرى والذي نفذت فيه يد المستعمر الفرنسي الإعدام... لمحتها رفقة أحدهم..

وقفت لحظتها أصحح شكوكي، لكنها كانت هي.. لست أدري لماذا أصبحت أتقرب منها الآن أكثر من ذي قبل.. شيء ما يشدني نحوها.. كأنني أريد معرفة خصوصياتها.. كأنني أريدها أن تخبرني عن ذاك الرجل الذي كان يقف معها.

أن تقول لي:

- هو أحد الأقرباء.. لا أكثر ولا أقل..

هكذا دون مقدمات ودون طرح لأسئلة تحيرني!

ولكن كلما أتذكر نبرة الحزن التي تسكنها وتحاول إخفاءها بكثير من الفرح تشل تفكيري بل وتجعلني عاجزة عن قول شيء سوى الاستماع إليها!

- ربما هي محقة في اختيارها..

- ربما هي تبحث عن الحنان.. ربما.. ربما..

وفي يوما ما قالت لي وبكل بساطة:

- أريد المال والحياة الكريمة.. أريد الزواج قبل فوات العمر، و لا يهم إن كان العريس في عمر أبي؟

ولكن كنت على حافة الانفعال والصراخ في وجهها لما تفعلين ذلك..

- إنه في عمر..؟

- وأنت مازلت في عمر الزهور؟!

كانت ثريا تستوقفني كل صباح وأنا أخط أوراقي.. أكتشف فيها وهما آخر من الحياة وشخصية أخرى تشعر بالندم والمرارة..

أكتشف في أوراقي كراهيتي وغيرتي في آن واحد.. واكتشف أحاسيسي التي لطالما تواطأت معها على كبتها!!

"ثريا" ترغمني بحكاياتها على أن لا أبتر قصائد الحب بداخلي، ولا أطلق عليها نار الاتهامات ولا أحرجها بنقاوتي وطهري يوما.

هي بذلك كانت تفجر بداخلي دهشة أسقطتها رغما عني.

هي بذلك تحاول أن أعيد ترتيبات فوضاي المبعثرة بداخلي.

هي بذلك تحطم جسورا قد بنيتها منذ آلاف السنين، أن أجتاز آلاف الأحداث.بين أزمنة للحرب وأخرى للسلام أعلنتها أو...

أن أتصالح مع ذاتي وأرتمي في حضن الوطن ليحضنني بكبرياء!

هي بذلك تضعني أمام خيارات يصعب الاختيار فيها بين مرور العمر دون محطات وبين الظروف التي أوقعتنا في سوء الاختيار.. بين فرحة بعيدة المنال وأمومة تسكننا بزينة الحياة..

حينها أدركت الخراب الذي يحتويني وأنا صامتة عنه وبخيبة الهزيمة رحت أشفي ولَعِي بالرقص على أنقاض فكرة لا أريدها أن تسكنني فتشتعل براكيني الخامدة.

صمِت وقد تواطأ صمتي مع جنونها وكأنني أعتذر لها بوجه آخر غير وجهي .

هذه المرة رسمّتني الألوان بطريقة أخرى.. رسمتني وأخذتني إلى قاعة الحفلات.. إلى لغة الرقص بالألوان وزينة الملابس بالألوان..

اختلطت عليّ الألوان من أصفر إلى أحمر إلى أخضر.. أجوري.. أسود.. أرجواني.. أبيض.وقتها لم أتعمد مزجها.. تركتها تلعب لعبتها.. تركتها على حالها فوق أجساد تسعد باللحظة.. ووقتها تذكرت الأغنية.. أغنية الرقص..

فتشوا في قلوبكم..

أنتم تحترقون..

يمكنكم أن تطيروا..

ليتحرر الجميع..

لنتحرر..

لنخلع حذاء المناسبات..

انسوا أحزانكم..

ليتحرر الجميع..

لنخلع حذاء المناسبات..

تحرروا.. تحرروا..

اخلعوا حذاء المناسبات..

وتحررت النسوة..

تحررن من سقوطهن المستمر.. من سقوطهن الدائم.. تحررت الألوان وتسريحات الشعر.. أشكال وألوان.. تحررت المساحيق والأغاني الصاخبة.. تحررت الأجساد من نسخة أصلية إلى شبه نسخة أخرى.. تحوّلت من الصمت الدائم إلى لغة الحلم والحب.. مفضوحة الرموز والإيقاع.. تعترف بلا خجل أنها تحررت من كبتها.. من صمتها.. من الأوتاد البالية.. من الشعارات المزيفة واللوائح المسطرة.. تحرّرت من صور المجلات والصور العارية ومن الأجساد العارية ومن الخطيئة التي علقت بها..

وتساءلت وكنت منهن:

- هل تحررن من عبودية الجدران الأربعة؟

- وهل تحررن من عقدة الآخر؟

- رأيتهن يبحثن عن أنفسهن.. عن الألوان التي تقول أنني أنثى بكل الألوان!

ورأيتهن هكذا... تسكنهن متاهة الأربعة جدران، ومتاهة لا يعرفن الخلاص منها وهي الآخر الذي يسكنهن.. اغتراب..

كانت مواويلي الملونة والمتوهجة تصدح في فراغ الذاكرة، وكنت أحاول رتق الجراح الملتهبة ونسيت غيرتي ورغباتي...

كانت تتعبني تلك الألوان الداهئة التي يحاصرني بها الأحمر والأصفر والبرتقالي..كنت أراها في غضب النار وعادة لتوصيل الكره أو لإظهار الابتهاج.

ومرة في الألوان الباردة.. الأخضر والأزرق والبنفسجي التي أهيم بها في الطبيعة.. الماء والخضرة لتبعث في نفسي الهدوء والطمأنينة..

لقد عاشرت الألوان بروحي، فكنت أختار وأقف وقفات

طويلة معها.. لون اللباس ولون الشعر ولون الحقيبة ولون الحذاء ولون السيارة ولون الأثاث والأفرشة والأرضية ولون الجدران و.. و..

كان تحليل الألوان وقفة أخرى مع العمر.. في سن الخامسة والثلاثين تخبو الألوان وترتسم الخطوط التي كنت أشكّلها على لوحاتي، فكنت أبحث عن مواطن الجمال في لون العينين والرموش والبشرة والابتسامة والشعر والأظافر.. و.. و..

إن كنت المرأة الصيفية أو الشتوية أو الخريفية أو الربيعية وفي المقارنة بين الألوان الباردة والدافئة.. في اللون الذي يخفي الظلال والدوائر ويعطي الحيوية والجاذبية.

كنت أحاول التقرب من شخصيتي في الألوان ومن الفصل الذي أنتمي إليه، وما يناسبني من عطور وملابس ومجوهرات.. إن كنت أميل إلى الإثارة بسبب عطري المفعم بالحيوية أو بمجوهراتي الفضية والماسية والذهبية.

إن كنت امرأة صيفية بألواني الكلاسيكية التي تضفي عليّ الهدوء والمثالية والاتزان واللباقة والأناقة.. وعطري برائحة الزهور.

أو المرأة الخريفية.. الطبيعية.. بمجوهرات الذهب وعطر الفاكهة..

أو المرأة الربيعية بإحساس مرهف وألوان مشعة.. حيوية.. جذابة.

كانت تجذبني تلك الموجات الكهرومغناطيسية التي تحرك الدواخل وتؤجج المشاعر وكيفية التحايل بها على الزمن الذي يلعب دوره على جسدي..

وببساطة اكتشفت أنني لم أجب عن أسئلة كثيرة حيّرتني، غير عودتي إلى الألوان وإعادة مزجها ورسم لوحة الرقص والتحرر والإيقاع والجسد مرة أخرى.. هناك في المرسم.. عند أبي.. في العلية المطلة على البحر والنوارس البيضاء..

كنت أتتبع لوني الآجوري منذ أن زرعني رحم فنيقي من أصل كنعاني في القرن الثالث قبل الميلاد.. .

لقد كان أجدادي يعشقون الألوان، وعشقهم اللون الآجوري.. زاد من بياضي وجمالي.

اللون الملكي الذي اشتهرت به قصور روما التي زينت

البحر وأسعدت النوارس.. فكنت البنت المدللة بلون الملوك فأسموني "ايكوسيم"..

الأرض التي هام بجمالها هرقل ورفاقه.. فركنوا إلى الراحة تحت ظلال أشجارها ونسائم بحرها الأزرق وزقزقات عصافيرها وتغاريد طيورها.. .

يحدث في تلك الليلة أنني مارست جنوني وحدي بين ألواني.. مارستُ وحدتي في العلِّية ، أتأمل المدينة البيضاء وأستحضر شيوخها العلماء ودراويشها الأتقياء وأبطالها الشهداء الذين تطل رؤوسهم من البحر تُشهدني على جنورهم وانتمائهم وبركاتهم.. عبد الرحمن الثعالبي.. أحمد الجزائري.. محمد القلعي.. أبي البركات الباروني.. و.. و

وأحمد زبانة وعلي لابوانت وجميلة بوحيرد وجميلة بوباشا وحسيبة بن بوعلي ومليكة قايد...

شدّني بياضها وزرقة اليّم والسماء والشجر والطير والبنايات والهواء والمطر.و.. و... وإلى تذكر قول أحد الشعراء:

بلد أعارته الحمامة طوقها ** وكساه حلة ريشه الطاووس

وتخيّلت نفسي أسكن قصراً من القصور والدور الضخمة كقصر الداي مصطفى باشا أو القصر الذي بناه الرايس حميدو أو قصر الباردو أو قصر الداي بالقصبة.. القصبة التي فجرت علي لابوانت وألهمت محمد ديب في رواياته "دار السبيطار" و"الحريق" و"الدار الكبيرة" روايات تحكي بطولة شعب وهمجية ووحشية المستعمر في التعذيب...

كنت مرتبطة بذاكرتي وذاكرة قصر عزيزة أو دار عزيزة باي.. المحبوبة عند زوجها والتي ارتبط اسمها بذاك الحب الجارف الذي قتلها بضربة سيف حاد.. قتلتها غيرتُه الجنونية بها..حتى حُبه لها لم يشفع لها عن قتلها بيده..

هي أسوار سكنتها الحكايات المثيرة.. أسوار خبأت بين زواياها وأقواسها المنحية تحفا من الإعجاب.. ذوق وجمال وراحة أبدية ، حتى خيِّل إليّ أنني في إحدى عجائب ألف ليلة وليلة وأن شهرزاد سرقت حكاياتها الليلية من تلك الزوايا والنوافذ والأقواس واللون الأزرق والأضواء التي تنساب دون استئذان إلى تلك الغرف المتراصة والمتداخلة ببعضها البعض..

من الزرابي والمرايا والممرات والزخرفة التي تسكن كل جدار وكل تحفة باللون البنفسجي والأزرق والأحمر و.. و..

بنايات ميزَتها الطراز القديم.. فسيفساء وأعمدة من المرمر ونافورات الماء تزين الحدائق الغناء، والتمتع بجمال الطبيعة، ولذة الحياة والغرف الواسعة والزرابي المبثوثة والساعات الكبيرة والمرايا التي كنت أرى نفسي فيها امرأة تاريخها طويل وعريض.. امرأة بقامات شامخة.. امرأة مني.. امرأة اسمها ايكوزيوم..

امرأة البياض واللون الآجوري..

امرأة ورجل لا يخجلان من الاعتراف أمام اللون والشكل إذا ما تبدد اللون وتحطمت كل الأشكال...

انتهى

صدر للمؤلفة :

- نساء يعتنقن الإسلام (دراسة) نشر دار الحضارة 1996.
- قراءات سيكولوجية في روايات وقصص عربية (الطبعة الأولى عن دار الحضارة 2004 والطبعة الثانية عن دار الحبر2007).
- المـوؤودة تـسأل.. فمـن يجيـب؟ (مجموعـة قصـصية) دار الحضارة2003.
- مخالب (مجموعة قصصية) نشر جمعية المرأة في اتصال 2004.
- السوط والصدى (رواية) نشر وزارة الثقافة 2006.
- اعترافات امرأة (روايـة) 2007 (طبعـة خاصـة في إطـار تظـاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، نشر دار الحبر)
- سقوط فارس الأحلام (رواية) 2009 دار نورشاد (الجزائر، ط1)، الطبعة الثانية عن منشورات نيبور العراق 2015.
- حكايات شعبية جزائرية رفقة الأديب رابح خدوسي: الشيخ ذياب ـ لونجا ـ بقرة اليتامى ـ بنت السلطان ـ الأميرة السجينة ـ الفرسان السبعة ـ الأمير و الفراشة ،مترجمة إلى اللغة الفرنسية.

وصدرت أيضا بعنوان بقرة اليتامى وقصص أخرى عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق. و بفرنسا تحت عنوان Contes Algériens عن دار النشر Edilivre 2015.

- أبو راس الناصري (للفتيان).

قالوا عن هذه الرواية:

" رواية اعتـــرافات امـــرأة تحمل هما أنثويـــا ونسويـــا يتدفق شـــلالا من الأغـــوار البعيدة للذاكـرة الجمعية النسوية، تطفو عليه الملامح المأساوية للمرأة عبر الأجيال وهي تصارع لإثبات الذات وفرض الوجود والاعتراف بالكينونة والعتق من سلطة مجتمع ذكوري قاهـر ومن هيمنة ماض قاس، فرواية اعترافات امرأة هي ولادة ثانية للمرأة واستشراف لعالم تتنفس فيه الذات أنوثـــة وحرية وإبداعـــا ."

أ.د. حسين بوحسون ـ بشار

" إننا أمام نص روائي متميز، تمكّن من حبك تقنيات السرد عبر تداخل الضمائر السردية التي تراوحت بين ضمير الغائب وضمير المتكلم الذي يستغور دواخل الذات، بشكل لافت، كما نسجّل اعتناءه باللغة، وبتشخيص انفعالات الذوات، عبر وصف شاعري."

بوشعيب الساوري

ناقد وباحث في السرد العربي - المغرب

© منشورات الحضارة

ص ب 04 (A)بئرالتوتة 16045 الجـزائر
هـــاتف وفـــاكس : 46 70 41 021
kheddoucir@yahoo.com

ISBN 978-9-93135-731-5
9 789931 357315